

تأليف

الإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر
الشهير بالحكيم الترمذي
المتوفى نحو سنة ٣١٩هـ

قدم له وعلق عليه

إبراهيم شمس الدين

ملتقى أهل الأثر

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية بيروت لبنان

جميع الحقوق محفوظة
Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés ©

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signé par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciares.

الطبعة الثانية
٢٠٠٥ م. ١٤٢٦ هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

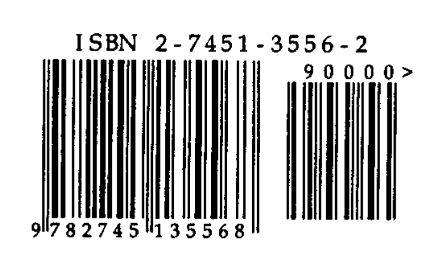
Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
هاتف: ١٢/ ١١/ ٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١+ ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+ رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun-ilmiyah.com

ISBN 2-7451-3556-2



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبد الله، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الكرام المنتجبين.

وبعد

فإن علم السلوك(١)، وهو معرفة النفس ما لها وما عليها من الوجدانيات، ويسمّى بعلم الأخلاق، وبعلم التصوف أيضاً.

وفي مجمع السلوك: وأشرف العلوم علم الحقائق والمنازل والأحوال، وعلم المعاملة والإخلاص في الطاعات والتوجه إلى الله تعالى من جميع الجهات، ويسمّى هذا العلم بعلم السلوك، فمَن غلط في علم الحقائق والمنازل والأحوال المسمّى بعلم التصوف، فلا يُسأل عن غلطه إلا عالماً منهم كامل العرفان.

وعلم الحقائق ثمرة العلوم كلها وغايتها، فإذا انتهى السالك إلى علم الحقائق وقع في بحر لا ساحل له، وهو، أي علم الحقائق، علم القلوب وعلم المعارف، وعلم الأسرار، ويقال له: علم الإشارة.

ويقول كبار مشايخ أهل الباطن: إنه يجب بعد تحصيل علم المعرفة والتوحيد والفقه والشرائع أن يتعلم السالك علم آفات النفس ومعرفتها، وعلم الرياضة، ومكايد الشيطان للنفس وسبل الاحتراز منه، ويقال لهذا العلم: علم الحكمة، ذلك أن نفس السالك متى استقامت على الواجبات، وصلُح طبع السالك، وتأدّب بآداب الله، أمكنه حينئذٍ أن يراقب خواطره وأن يطهّر سريرته، وهذا العلم يقال له: علم المعرفة.

---

(١) انظر كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي ١/ ٤٢ ـ ٤٣.

وأما مراقبة الخواطر فهي أن يتفكّر في الحق ولا يمكنه أن يشغل كل خواطره بذات الحق، بل بالأعراض، أي فيما سوى الله تعالى.

وأما تطهير السرائر، فهو أن يتطهر من كل ما يلوّثه، حتى إذا وصل إلى علم المعرفة أصبح بمقدوره أن يصل إلى علم المكاشفة والمشاهدة، وهذا ما يطلق عليه الإشارة.

وموضوع علم السلوك أخلاق النفس إذ يُبحث فيه عن عوارضها الذاتية، مثلاً حب الدنيا في قولهم: حب الدنيا رأس كل خطيئة. خلق من أخلاق النفس حكم عليه بكونه رأس الخطايا ورأس الأخلاق الرذيلة التي تتضرر بسببها النفس، وكذا الحال في قولهم: بغض الدنيا رأس الحسنات.

وغرض علم السلوك التقرب والوصول إلى الله تعالى.

هذا كتاب «رياضة النفس» للإمام الحافظ المحدث الحكيم الترمذي، وهو كتاب يتحدث فيه الحكيم عن كيفية رياضة النفس وروضها، إلى طاعة الله تعالى، وعن الأكياس من الناس، وكيف أن الأنوار تشرق على قلوبهم، وتنقاد نفوسهم.

ثم يتحدث عن الفرح المحمود للمسلم، وأقسامه من فرح بالله عزّ وجل، وفرح بفضل الله ورحمته، وفرح بلقاء الله تعالى.

ويوازن الحكيم بين نور المعرفة ونور العقل، وأن أهل المجاهدة فرقتان: فرقة حفظت الجوارح وأدت الفرائض، وسارت إلى الله عزّ وجل قلباً فلم تعرج على شيء حتى وصلت إلى الله عزّ وجل. وفرقة ثانية حفظت الجوارح، وأدت الفرائض بجهد وتعب، ومع ذلك يوجد تخليط وتهافت في الخطايا، وأدناس لا يسلم منها.

ويرشدنا الحكيم بعد ذلك إلى كيفية الحفاظ على الجوارح، وكيف أن الجوارح أسلمت آدم إلى معصية الله تعالى، وكيف يستطيع المسلم ترويض جوارحه ونفسه إلى طاعة الله عزّ وجل.

ثم يميز الحكيم بين الوسيلة والوصيلة، وعلاقة ذلك بالتقوى، وكيف أن جهاد الصديقين يكون بابتغاء وسيلة الهم والحزن، وكلما ازداد قربهم اشتد شوقهم فازدادوا حتى عطشت قلوبهم. وامتلأت أحزاناً، حتى قطعوا الحياة والعمر بالأحزان.

ويتحدث الحكيم بعد ذلك عن صراع الشيطان مع الإنسان، ووسائل الغواية لديه، وكيف أن جنود الله من الملائكة يردون كيده، ويعصمون الصالحين من العباد، ويذكر صفات الملائكة وأدوارهم ومهامهم وأصنافهم وعبادتهم.

ويختم الحكيم ببيان كيفية تأديب المسلم نفسه، وأخذها إلى تقوى الظاهر والباطن، وكيف يستعين على ذلك برؤية الموتى والمقابر وأهل السجون حتى يرث الهم والحزن.

أما عملنا في هذا الكتاب فهو:

أولاً: حرصنا بقدر الطاقة على تنقية النص من الأخطاء، حيث وجدنا الكثير من الكلمات والألفاظ غير الواضحة أو المطموسة، والتي لم يكن من السهل توضيحها وفهمها.

ثانياً: شرحنا في حواشي الكتاب ما في متنه من غريب اللغة أو صعب المتناول منها، وذلك استناداً إلى المعاجم اللغوية المشهورة.

ثالثاً: وضعنا في حواشي الكتاب تعريفاً وافياً ـ مع ذكر المراجع ـ بالأعلام الواردة في المتن، وما أهملناه من ذلك إما معروف مشهور، ولم نجد ضرورة لنافل القول فيه، وإما لم نهتدِ إليه فيما بين أيدينا من المراجع والمصادر، وقد أشرنا إلى ذلك أيضاً.

رابعاً: بذلنا ما أمكننا من الجهد في شرح المصطلحات الصوفية، استناداً إلى موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي.

خامساً: خرّجنا جميع الأحاديث النبوية والآثار تخريجاً وافياً، وضبطنا نص الحديث استناداً إلى كتب الحديث المعتبرة.

سادساً: خرّجنا جميع الآيات القرآنية الكريمة على المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

سابعاً: وضعنا مقدمة في علم التصوف، أخذناها من مقدمة ابن خلدون ١/ ٥١٤ ـ ٥٢٦.

ثامناً: وضعنا ترجمة وافية للمؤلف.

وأخيراً نرجو أن يكون عملنا هذا خالصاً لوجهه تعالى، ولله الكمال وحده، وهو ولي التوفيق.

إبراهيم شمس الدين

الحكيم الترمذي
حياته وعصره ومؤلفاته

اسمه ونسبه:

هو أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر الترمذي؛ المشهور بالحكيم الترمذي[1]. أحد أعلام الصوفية الكبار والمشهورين من قادة الفكر الإسلامي في القرن الثالث الهجري.

مولده:

ولد الحكيم الترمذي بمدينة ترمذ والتي تقع على الضفة الشمالية لنهر الجيحون بالقرب من مصب نهر سرحان.

وتعتبر ترمذ أحد مراكز الثقافة الإسلامية في القرن الثالث الهجري، فقد نشأ بها عدد كبير من العلماء والمحدثين، نذكر منهم الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي صاحب «السنن» و«الشمائل».

وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ ميلاد الحكيم الترمذي على وجه التحديد، ولكن اتفقت جميع الروايات على أنه كان موجوداً في أوائل القرن الثالث الهجري، وعلى وجه التحديد ما بين سنة ٢٠٥هـ إلى ٢٢٠هـ[2].

نشأته وثقافته:

لم تكن طفولة الحكيم الترمذي طفولة عادية مليئة بلهو الأطفال وعبثهم ولعبهم،

---

(١) انظر: تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٤٥، طبقات الشافعية ٢/ ١٤٥ للسبكي. وهدية العارفين ٢/ ١٥ - ١٦. ولسان الميزان ٥/ ٣٠٨.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر: تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٤٥ الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية، للدكتور بركة ١/ ٣٣. لسان الميزان ٥/ ٣١٠. طبقات الشافعية ٢/ ٢٤.

إذ لا يتصور أن يتعود ذلك ثم يفطم عنه دفعة واحدة، دون أن يحدث ردّ فعل عنيف قد يتسبب في نفوره من شيخه ودرسه، وهذا خلاف ما حدث، مما يدل على أن هذه الطفولة كان فيها نوع من التهيئة النفسية والذهنية لفترة الدرس الجاد فيما بعدها[1].

فقد فتح الحكيم الترمذي عينيه على حلقات العلم والدرس منذ بدأ يعقل، لأن أباه كان أحد علماء الفقه ورواة الحديث كما يبدو من حديثه عنه، وقد أخذ أبوه يغرس فيه حب العلم وتحصيل المعارف، ويحمله على ذلك حملاً في وقت مبكر، حتى امتلأ وقته منذ الصبا الباكر بالإقبال على الدرس وتحصيل العلم، بفضل تشجيع والده وحثه على الاستزادة منه، مدفوعاً بحرص الأب ومسؤولية المربي حتى أصبح العكوف على الدرس أمراً مألوفاً له في سنه الباكر الذي يقطعه أترابه في اللهو واللعب، وقد كان أبوه أستاذه الأول، ولعله استغنى بذلك عن التردد على الشيوخ في صباه الأول.

ويفهم مما كتبه الحكيم عن تعليمه في هذه السن المبكرة أن أباه كان يدرس له علم الرأي والآثار، أو بعبارة أخرى علم الحديث والفقه[2]. فقد كان أبوه محدثاً ويروي عنه في كتبه جميعها، وهذا كله يجمله الحكيم الترمذي في عبارة موجزة بقوله: «كان بدو شأني أن الله تبارك اسمه قيَّض لي شيخي ـ رحمة الله عليه ـ من لدن بلغت من السمن ثمانياً، يحملني على تعلم العلم، ويعلمني ويحدثني عليه، ويدئب ذلك في المنشط والمكره، حتى صار ذلك لي عادة وعوضاً عن اللعب في وقت صباي، فجمع لي في حداثتي علم الآثار وعلم الرأي[3]».

شيوخه وأساتذته:

لم يحدثنا الحكيم الترمذي عن شيوخ له تعلّم منهم وأخذ عليهم إلا والده الذي أشار إليه في رسالته «بدو شأن الحكيم الترمذي»، وفي جانب آخر من هذه الرسالة روى الحكيم أنه سافر إلى الحج لما بلغت سنه سبعة وعشرين عاماً، وأنه في طريقه إلى الحج ذهب إلى العراق وأقام بالبصرة والكوفة يأخذ الحديث عن شيوخهما، ولكنه لم يذكر لنا أسماء هؤلاء الشيوخ ولا مدى تأثره بهم، وقد ذكرت كتب التراجم وخاصة كتب الرجال أسماء حوالي سبعة عشر من شيوخه الذين تلقى عنهم الحديث

---

(1) الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية ١/ ٤٤.

(2) الحكيم الترمذي ـ دراسة لآثاره ولأفكاره، الدكتور محمد إبراهيم الجيوشي ص١٥. ط. دار النهضة العربية.

(3) المرجع السابق، ص١٥، ١٦.

في خراسان والعراق، وليسوا هم كل شيوخه من المحدثين، فإنهم يزيدون على المائة والستين محدثاً[(١)].

ولو أردنا أن نحصر أسماء شيوخ الترمذي وخاصة من المحدثين، فما علينا إلا أن نقوم بعملية مسح لمؤلفاته ونستعرض سلاسل الإسناد، ونأخذ المحدث الأخير الذي تلقى عنه الحكيم مباشرة[(٢)].

وقد قام الأستاذ الدكتور الجيوشي بهذا العمل الشاق فكانت نتيجة هذا المجهود قائمة من أسماء شيوخ الحكيم الترمذي مرتبة على حروف الهجاء كما يلي:

١ ـ إبراهيم بن سعيد الجوهري. ٢ ـ إبراهيم بن عبد الحميد التمار. ٣ ـ إبراهيم بن عبد الله الخلال. ٤ ـ إبراهيم بن المستمر المصري الهذلي. ٥ ـ إبراهيم بن هارون البلخي. ٦ ـ إبراهيم بن يوسف الحضرمي الكوفي الصيرفي. ٧ ـ ابن أخي يحيى بن عيسى الرملي. ٨ ـ أبو بكر بن سابق الأموي. ٩ ـ أبو بكر أحمد بن مطرف. ١٠ ـ أبو سنان البلخي. ١١ ـ أبو طالب الهروي. ١٢ ـ أبو علي الصاغاني. ١٣ ـ ابن أبي بكر العمري. ١٤ ـ ابن أبي ميسرة. ١٥ ـ أحمد بن بحر العسكري. ١٦ ـ أحمد بن عبد الله أبو عبيدة بن أبي السفر الكوفي. ١٧ ـ أحمد بن عبد الله المهلبي. ١٨ ـ أحمد بن شداد. ١٩ ـ أحمد بن مرة. ٢٠ ـ أحمد بن مدرك القروي، صاحب مظالم العباس بن هاشم. ٢١ ـ أحمد بن مطرف اليماني. ٢٢ ـ أحمد بن المقدم أبو الأشعث العجلي. ٢٣ ـ أحمد بن يحيى الأزدي. ٢٤ ـ إسحاق بن زياد الأسلمي. ٢٥ ـ إسماعيل بن صالح. ٢٦ ـ إسماعيل بن نصر. ٢٧ ـ بشر بن آدم بن زيد البصري الأصغر، أبو عبد الرحمٰن ابن بنت أزهر السمان. ٢٨ ـ بشر بن خالد العسكري، أبو محمد الغرائضي. ٢٩ ـ بشر بن هلال الصواف، أبو محمد النميري. ٣٠ ـ الجارود بن معاذ السلمي الترمذي. ٣١ ـ جعفر بن عمرو. ٣٢ ـ الحارث بن عمير، أبو عمير البصري. ٣٣ ـ حجاج بن محمد الأعور. ٣٤ ـ الحسن بن الحسن المروزي. ٣٥ ـ الحسن بن سوار البغوي. ٣٦ ـ الحسن بن عمرو بن شقيق البصري. ٣٧ ـ الحسين بن حيان العسقلاني. ٣٨ ـ الحسين بن علي بن الأسود العجلي. ٣٩ ـ حصين بن فضالة. ٤٠ ـ حفص بن عمرو بن ربالة بن إبراهيم بن عجلان. ٤١ ـ حميد بن الربيع اللخمي.

---

(١) الحكيم الترمذي، دراسة لآثاره وأفكاره، للدكتور الجيوشي، ص٣٧.

(٢) المصدر السابق، ص٣٩.

٤٢ ـ حميد بن علي الخلال. ٤٣ ـ الخصيب بن مسلم. ٤٤ ـ داود بن حماد. ٤٥ ـ رزق الله بن موسى. ٤٦ ـ الزبير بن بكار الزبيري. ٤٧ ـ الزبير بن يحيى بن حسان الحساني اليشكري أبو الخطاب السدوسي. ٤٨ ـ سعيد بن عبد الرحمٰن المخزومي. ٤٩ ـ سعيد مولى الجارود. ٥٠ ـ سعيد بن يحيى الأموي. ٥١ ـ سفيان بن وكيع. ٥٢ ـ مسلم بن جنادة الكوفي. ٥٣ ـ سلمة بن شبيب النيسابوري. ٥٤ ـ سليمان بن حميد أبو الربيع الأيادي. ٥٥ ـ سليمان بن منصور البلخي، أبو هلال الذهبي. ٥٦ ـ سهل بن مسلم. ٥٧ ـ صالح بن عبد الله الترمذي. ٥٨ ـ سهل بن العباس. ٥٩ ـ عباد بن بكر بن عباد بن كثير الثقفي. ٦٠ ـ عباد بن عثمان بن عباد بن قاسم. ٦١ ـ عباد بن يعقوب الأسدي الرواجيني. ٦٢ ـ العباس بن أيوب الزبيري. ٦٣ ـ العباس بن زرارة اليشكري. ٦٤ ـ العباس بن عبد العظيم العنبري. ٦٥ ـ عبد الجبار بن حبيب بن ندبة. ٦٦ ـ عبد الجبار بن العلاء. ٦٧ ـ عبد الرحمٰن بن الفضل بن الموفق الكوفي. ٦٨ ـ عبد الرحمٰن بن هانىء الكوفي النخعي. ٦٩ ـ عبد الرحمٰن بن يونس بن محمد الرقى. ٧٠ ـ عبد الرحيم بن حبيب بن ندبة. ٧١ ـ عبد الرحيم أبو عمرو الغيذي. ٧٢ ـ عبد الصمد بن الفضل. ٧٣ ـ عبد العزيز بن مسلم القسملي. ٧٤ ـ عبد العزيز بن المنيب المروزي. ٧٥ ـ عبد الكريم بن عبد الله السكري. ٧٦ ـ عبد الكريم بن عبد الله. ٧٧ ـ عبد الله بن خلف بن موسى. ٧٨ ـ عبد الله بن عاصم الحماني، أبو سعيد البصري. ٧٩ ـ عبد الله بن حصين الكندي أبو سعيد الأشج الكوفي. ٨٠ ـ عبد الله بن الحكم بن زيادة القطواني. ٨١ ـ عبد الله بن عبد الله بن أسيد الكلابي. ٨٢ ـ عبد الله بن الوضاح اللؤلؤي. ٨٣ ـ عبد الله بن يوسف الخيبري. ٨٤ ـ عبد الملك بن عبد الله الرقاشي، أبو قلابة. ٨٥ ـ عبد الله الربعي. ٨٦ ـ عبد الوهاب بن عبد الحليم البزار. ٨٧ ـ عبد الوهاب بن عبد الكريم الوراق. ٨٨ ـ عبد الوهاب بن فليح المكي. ٨٩ ـ عقبة بن عبد الله المروزي الأزدي. ٩٠ ـ عتبة بن محمد الخشني. ٩١ ـ عقبة بن قبيصة. ٩٢ ـ العلاء بن سلمة الرؤاسي. ٩٣ ـ علقمة بن عمرو بن الحصين التميمي. ٩٤ ـ علي بن حجر بن أوس السعدي المروزي. ٩٥ ـ علي بن الحسن الترمذي. ٩٦ ـ علي بن الحسن النيسابوري. ٩٧ ـ علي بن خشرم المروزي. ٩٨ ـ علي بن سعيد السروقي الكندي. ٩٩ ـ علي بن سهل المزلي. ١٠٠ ـ علي بن عبد العزيز البغدادي. ١٠١ ـ علي بن عيسى بن يزيد

البغدادي. ١٠٢ ـ عمرو القناد. ١٠٣ ـ عمرو بن صالح اللؤلؤي. ١٠٤ ـ عمرو بن علي الصادقي. ١٠٥ ـ عمرو بن علي بن بحر بن كثير أبو حفص الصيرفي البصري. ١٠٦ ـ عمر بن أبي عمر العبدي. ١٠٧ ـ عمر بن يحيى بن نافع الأبلي. ١٠٨ ـ عيسى بن أحمد العسقلاني. ١٠٩ ـ فضالة بن الفضل الكوفي. ١١٠ ـ الفضل بن محمد الواسطي. ١١١ ـ الفضل بن محمد الوزير الدمشقي. ١١٢ ـ قتيبة بن سعيد. ١١٣ ـ المؤمل بن هشام اليشكري البصري. ١١٤ ـ محمد ابن أبان البلخي. ١١٥ ـ محمد بن أبي سطيع. ١١٦ ـ محمد بن إسماعيل بن سمرة الأحمي. ١١٧ ـ محمد بن أيوب السختياني. ١١٨ ـ أبو الحسن محمد بن بحر. ١١٩ ـ محمد بن بشار العبدي. ١٢٠ ـ محمد بن حميد السرازي. ١٢١ ـ محمد بن خنيس بن المخزومي المكي. ١٢٢ ـ محمد بن رزام بن عبد الملك الأبلي. ١٢٣ ـ محمد بن زنبور، أبو صالح المكي. ١٢٤ ـ محمد بن سعيد بن سويد الحكمي. ١٢٥ ـ محمد بن شجاع المروزي. ١٢٦ ـ محمد بن إبراهيم بن صدران. ١٢٧ ـ محمد بن الضحاك. ١٢٨ ـ محمد بن عبيد الله. ١٢٩ ـ محمد بن علي بن الحسن الشقيقي العبدي. ١٣٠ ـ محمد بن عبيد الهمزاني. ١٣١ ـ محمد بن عبيدة بن سليمان. ١٣٢ ـ محمد بن عبد الله بن يزيد المقرىء. ١٣٣ ـ محمد بن عثمان الطائفي. ١٣٤ ـ محمد بن عمر السويقي. ١٣٥ ـ محمد بن عمارة بن صبح الأسدي. ١٣٦ ـ محمد بن الفضل البخاري. ١٣٧ ـ محمد بن عيسى بن عبد الله الربعي. ١٣٨ ـ محمد بن محمد بن حسين. ١٣٩ ـ محمد بن مرزوق البصري. ١٤٠ ـ محمد بن معمر البصري. ١٤١ ـ محمد بن مقبل. ١٤٢ ـ محمد بن موسى الحرسي. ١٤٣ ـ محمد بن ميمون المكي. ١٤٤ ـ محمد بن يحيى بن أيوب بن إبراهيم القعري المروزي. ١٤٥ ـ محمد بن يحيى بن عبد العزيز المروزي. ١٤٦ ـ محمد بن يزيد النيسابوري. ١٤٧ ـ محمد بن يحيى النيسابوري أبو عبد الله الذهلي. ١٤٨ ـ أبو هشام الرفاعي محمد بن يزيد بن محمد بن رفاعة العجلي الكوفي. ١٤٩ ـ مهدي بن عمرو. ١٥٠ ـ موسى بن عبد الله السفل. ١٥١ ـ نصر بن فضالة. ١٥٢ ـ نصر بن عبد الرحمٰن الوشاء الكوفي. ١٥٣ ـ نصر بن علي بن نصر الجهضمي الأزدي الخراساني. ١٥٤ ـ نصير بن يحيى. ١٥٥ ـ هارون بن حاتم الكوفي. ١٥٦ ـ هارون بن موسى بن أبي علقمة القزويني. ١٥٧ ـ يحيى بن أحمد بن عبدة الطائي الكاتب. ١٥٨ ـ يحيى بن الأحمر المكتب. ١٥٩ ـ يحيى بن حبيب بن عربي. ١٦٠ ـ يحيى بن عبد الله الحراني. ١٦١ ـ يحيى بن المغيرة بن عبد الرحمٰن

المخزومي. ١٦٢ ـ يحيى بن موسى البلخي. ١٦٣ ـ يزيد بن عمرو بن يزيد البراني عبد الله الغنوي. ١٦٤ ـ يزيد بن معقل ولد أبي طيبة. ١٦٥ ـ يعقوب بن إبراهيم الدورقي. ١٦٦ ـ يعقوب بن شيبة بن السلط بن عصفور البصري. ١٦٧ ـ يوسف بن إسحاق. ١٦٨ ـ يوسف بن عبد الله بن نجيد.

تلاميذه:

قد يكون مثيراً للدهشة والتساؤل أن نتبين أن تلامذة الترمذي من القلة بحيث لا يتجاوز عددهم ستة، وسبب ذلك فيما يبدو أن الترمذي لم يهتم بتربية الأتباع والمريدين كما هو الحال بالنسبة لشيوخ الصوفية الكبار من قبله ومن بعده. ومرد ذلك أنه يعتقد أن الوصول إلى الله لا بد أن يرتكز على استعداد وجهد شخصي من السالك نفسه، وأن أي واسطة بينه وبين ربه قد تفسد طريقه وتسلمه إلى الحيرة والضياع[1].

ولم نعثر على أسماء لتلامذة الحكيم قد ثبت أنهم أخذوا عنه سوى الآتي أسماؤهم:

١ ـ أحمد بن محمد بن عيسى.

٢ ـ الحسن بن علي الجوزجاني.

٣ ـ منصور بن عبد الله بن خالد الهروي.

٤ ـ أبو بكر محمد بن جعفر بن الهيثم.

٥ ـ أبو بكر محمد بن عمر الوراق الترمذي الحكيم.

٦ ـ أبو محمد يحيى بن منصور القاضي.

مؤلفاته:

أعدّ الدكتور الجيوشي قائمة بمؤلفات الحكيم الترمذي هذا بيانها:

١ ـ أبواب مختلفة مخطوط، الجمعية الآسيوية رقم ١٠٥٦.

٢ ـ إثبات العلل في الأمر والنهي، مخطوط ولي الدين رقم ٧٧٠ خراجي أوغلو رقم ٨٠٦. برلين ٣٥٠٤.

٣ ـ الاحتياطيات، مخطوط باريس رقم ٥٠١٨.

---

(١) الحكيم الترمذي ـ دراسة لآثاره وأفكاره، للدكتور الجيوشي، ص٥٣، ٥٣.

٤ ـ أدب النفس طبع في القاهرة ١٩٤٧ مع كتاب للرياضة تحقيق الدكتور علي حسن عبد القادر، والبرفيسور آربري. وتوجد منه نسخ مخطوطة في الظاهرية وباريس وأسعد أفندي.

٥ ـ الأدعية، مخطوط فارسي أيا صوفيا رقم ٨١٤ ومشكوك في نسبته إليه.

٦ ـ كتاب الإرادات مفقود وذكره في كتابه إلى محمد بن الفضل.

٧ ـ كتاب الأكياس والمغترين، مخطوط الظاهرية رقم ١٠٤ تصوف، وإسماعيل صائب رقم ١٥٧١.

٨ ـ الأمثال من الكتاب والسنة، مخطوط باريس رقم ٥٠١٨، ومكتبة أسعد أفندي رقم ١٤٧٩، والجمعية الآسيوية كلكتا رقم ١٠٥٦ بعنوان تبيان الأمثال.

٩ ـ أنواع العلوم، مخطوط ولي الدين ٧٧٠، وليبزج ١٢، وإسماعيل صائب رقم ١٥٧١، والظاهرية رقم ١٠٤ تصوف.

١٠ ـ بدء شأن أبي عبد الله (ترجمة للحكيم بقلمه) مخطوط إسماعيل صائب رقم ١٥٧١، ونشره الدكتور عثمان يحيى في مقدمة ختم الأولياء بيروت سنة ١٩٦٥م.

١١ ـ بيان آداب المريدين، مفقود لعله المسمى (مسائل أهل سرخس).

١٢ ـ بيان العلم، مخطوط إسماعيل صائب رقم ١٥٧١.

١٣ ـ بيان الفرق بين الآيات والكرامات، مخطوط إسماعيل صائب رقم ١٥٧١، كلكتا ١١١٦.

١٤ ـ بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب، طبع بالقاهرة سنة ١٩٥٨، تحقيق الدكتور نقولا هير عن مخطوطة وحيدة بدار الكتب المصرية.

١٥ ـ بيان الكسب مخطوط الظاهرية ١٠٤ تصوف.

١٦ ـ بيان المعرفة والصفاء، مفقود.

١٧ ـ تاريخ المشايخ، مفقود.

١٨ ـ تبيان الأمثال، الجمعية الآسيوية كلكتا رقم ١٠٥٦ وهو كتاب الأمثال.

١٩ ـ تحصيل نظائر القرآن مخطوط بلدية الإسكندرية رقم ١٤٥ فنون متنوعة.

٢٠ ـ تفسير، مفقود ذكره الهجويري وقال إنه لم يتمه، تفسير آية ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ مع تأويل أربعين حديثاً.

٢١ ـ التوحيد، مفقود مذكور في كشف المحجوب.

٢٢ ـ الجمل اللازم معرفتها، مخطوط باريس رقم ٥٠١٨، ومنشستر رقم ١٠٦ج.

٢٣ ـ جواب كتاب من الري، مخطوط إسماعيل صائب ١٥٧١، وليبزج ٢٠٢، والظاهرية ١٠٤ تصوف.

٢٤ ـ الحج وأسراره مخطوط باريس رقم ٥٠١٨.

٢٥ ـ الحقوق، مخطوط إسماعيل صائب ١٥٧١.

٢٦ ـ الحكمة أو الخدمة من علم الباطن مخطوط خراجي أوغلو رقم ٨٠٦.

٢٧ ـ ختم الأنبياء، مفقود ذكره صاحب كشف الظنون ص٧٠١ وقال عنه إنه مختصر ثم ذكر أوله وهو الحمد لله رب العالمين الخ.

٢٨ ـ ختم الأولياء ـ طبع في بيروت ١٩٦٥ تحقيق الدكتور عثمان إسماعيل يحيى، ويوجد منه نسختان خطيتان هما اللتان اعتمد عليهما المحقق الأولى في مكتبة الفاتح رقم ٥٣٢٢ والثانية في مكتبة ولي الدين رقم ٧٧٠.

٢٩ ـ الرد على الرافضة، مخطوط ولي الدين رقم ٧٧٠. غير كامل.

٣٠ ـ الرد على المعطلة، مخطوط بلدية الإسكندرية فنون متنوعة رقم ١٤٥.

٣١ ـ رسالة في الفتوة، مخطوطة أيا صوفيا رقم ٢٠٤٩.

٣٢ ـ الرياضة أو رياضة النفس (وهو الكتاب الذي بين أيدينا)، ويسمى حقيقة الآدمية وقد طبع محققاً، مرتين بعنوان الرياضة تحقيق دكتور علي حسن عبد القادر والبرفسور آربري في القاهرة سنة ١٩٤٧، وعنوان حقيقة الآدمية تحقيق الدكتور عبد المحسن الحسيني في مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية جـ٣ سنة ١٩٤٦ ص٥٠ ـ ١٠٨. وهناك عدد من المخطوطات لهذا الكتاب في الظاهرية وباريس وأسعد أفندي وتشستر بيتي، أما الورقات المعدودة في مخطوطات إسماعيل صائب المعنونة بكتاب الرياضة فيبدو أنها شيء آخر غير هذا.

٣٣ ـ سبب التكبير في الصلاة مخطوطة خراجي أوغلو ٨٠٦.

٣٤ ـ سيرة الأولياء، مفقود وذكره في أهل سرخس الظاهرية ص٢٥٠، وليبزج رقم ٦٩٥ب وإسماعيل صائب ورقة ١٣٠ب.

٣٥ ـ شرح سؤالات في التعبيرات الإلّهية مخطوط الزيتونة تونس رقم ١٥٨٩.

٣٦ ـ شرح الصلاة ومقاصدها مخطوط باريس رقم ٥٠١٨، وأسعد رقم ١٤٧٩، ثم طبع أخيراً في القاهرة سنة ١٩٦٥ نشر المؤتمر الإسلامي وتحقيق الأستاذ حسني زيدان وإن كان على التحقيق مآخذ كثيرة لعل المحقق يتلافاها في الطبعة الثانية.

٣٧ ـ شرح قول: ما الإيمان والإسلام والإحسان، مخطوط ليبزج رقم ٢١٢، وإسماعيل صائب ١٥٧١، وولي الدين رقم ٧٧٠، وهناك رسالة أخرى عنوانها: معنى الإيمان والإسلام والإحسان وقد اعتبرهما الدكتور يحيى رسالة واحدة وليس كذلك.

٣٨ ـ صفة القلوب مخطوط قسطموني رقم ٢٧١٣ وهو اختصار لغور الأمور.

٣٩ ـ طبقات الصوفية مفقود وذكره صاحب كشف الظنون ص١١٠٤ طبع إسطنبول ١٩٤٣.

٤٠ ـ عذاب القبر، مفقود، مذكور في كشف المحجوب الترجمة الإنجليزية ص١٥١، طبعة سنة ١٩٦٧.

٤١ ـ عرس الموحدين، مخطوط باريس رقم ٥٠١٨، أسعد رقم ١٤٧٩، إسماعيل صائب رقم ٤٨٢٤ ويسميه بعض الباحثين عرش الموحدين.

٤٢ ـ العقل والهوى، مخطوط باريس رقم ٥٠١٨، أسعد رقم ١٤٧٩ وفيه نقص.

٤٣ ـ العلل أو كيفية الصلاة والوضوء والسواك، مخطوط ولي الدين ٧٧٠ والقاهرة ١٢٥ مجاميع.

٤٤ ـ علم الأولياء، مخطوط دار الكتب المصرية مجاميع طلعت رقم ٦٩٤، والجمعية الآسيوية كلكتا رقم ١٠٥٦، وخراجي أوغلو رقم ٨٠٦.

٤٥ ـ العلوم، مفقود أشار إليه الحكيم في كتاب الأكياس والمغترين مخطوط إسماعيل صائب ورقة ٧٥ ومخطوط الظاهرية ص١٥ ولعله المسمى أنواع العلوم أو لعله المسائل العفنة.

٤٦ ـ غرس العارفين مخطوط الجمعية الآسيوية كلكتا رقم ١٠٥٦ وهو عبارة عن ورقة واحدة.

٤٧ ـ غور الأمور ويسمى الأعضاء والنفس مخطوط باريس رقم ٥٠١٨ وأسعد رقم ١٤٧٩ وأسعد رقم ١٣١٢.

٤٨ ـ الفرق بين الآيات والكرامات مخطوط إسماعيل صائب رقم ١٥٧١، كلكتا الجمعية الآسيوية رقم ١١١٦ وهي غير كاملة.

٤٩ ـ الفروق ومنع الترادف، مخطوط باريس رقم ٥٠١٨ أسعد رقم ١٤٧٩، أيا صوفيا رقم ١٩٧٥، وحيد باشا رقم ٢٢٥١ بلدية الإسكندرية فقه شافعي ٣٣ وهي غير كاملة.

٥٠ ـ الكلام على معنى لا إله إلا الله أو شفاء العلل مخطوط ليبزج رقم ٢١٢ وخزينة رقم ١٧٦٢، ولي الدين رقم ٧٧٠.

٥١ ـ مسائل أهل سرخس مخطوط ليبزج ٢١٢، إسماعيل صائب رقم ١٥٧١، والظاهرية رقم ١٠٤ تصوف. وانظر تعليقات آربري عليها مع مسائل التعبير في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية في العدد رقم ١٨ سنة ١٩٤٠، صفحات ٣١٥ ـ ٣٢٧.

٥٢ ـ مسائل التعبير، مخطوط إسماعيل صائب رقم ١٥٧١ ليبزج رقم ٢١٢ وانظر تعليقات آربري عليها كما هو مشار إليه في العمل السابق.

٥٣ ـ مسائل رقم واحد مخطوط ليبزج رقم ٢١٢ وإسماعيل صائب رقم ١٥٧١.

٥٤ ـ مسائل رقم ٢ مخطوط ليبزج رقم ٢١٢.

٥٥ ـ المسائل العفنة مخطوط ليبزج رقم ٢١٢، إسماعيل صائب رقم ١٥٧١، الظاهرية رقم ١٠٤.

٥٦ ـ مسألة في الإيمان والإسلام والإحسان ليبزج رقم ٢١٢، ولي الدين ٧٧٠.

٥٧ ـ المسائل المكنونة مخطوط ليبزج رقم ٢١٢، بلدية الإسكندرية فنون متنوعة ١٤٥.

٥٨ ـ معرفة الأسرار، مخطوط قسطموني رقم ٢٧١٣.

٥٩ ـ منازل العباد من العبادة أو منازل القاصدين مخطوط باريس ٥٠١٨، أسعد أفندي.

٦٠ ـ منتخبات من كتاب الصفاء، مخطوط تشستربيتي.

٦١ ـ المناجة ـ مخطوط الأزهر رقم ٢٣٦، مجاميع.

٦٢ ـ المنهج في العبادة مفقود مذكور في كشف الظنون ص١٨٧٨ طبع إسطنبول سنة ١٩٤٣.

٦٣ ـ المنهج في. . .، مفقود مذكور في كشف الظنون ص١٨٨٣ طبع إسطنبول ١٩٤٣.

٦٤ ـ المنهيات وكل ما جاء من حديث بالنهي مخطوط باريس رقم ٥٠١٨.

٦٥ ـ النهج مفقود، أشار دكتور نقولا هير إلى أنه مذكور في نفحات الأنس وكشف المحجوب.

٦٦ ـ نوادر الأصول في معرفة أخبار الرسول طبع في إسطنبول سنة ١٢٩٣هـ، بعناية وشرح الشيخ مصطفى إسماعيل الدمشقي وسمي شرح مرقاة الوصول إلى نوادر الأصول.

٦٧ ـ نوادر أصول العرفان وزواهر فروع الإيقان مخطوط فيينا رقم ٦٤٠ وهو مجموعة قصائد باللغة الفارسية ويشك في نسبته إليه.

٦٨ ـ الهداية إلى معرفة آداب الولاية مخطوط في نسبته له شك بدار الكتب القاهرة الخزانة التيمورية مجاميع رقم ٢٢٧.

تلك هي عناوين الكتب والرسائل التي ألّفها الحكيم الترمذي حسب علمي، ومما لا شك فيه أن هناك مؤلفات أخرى لم نعثر عليها بعد، وقد يكشف البحث في المستقبل عنها ولم نضف إلى هذه القائمة ما روي.

وفاته:

اختلفت المصادر في تحديد تاريخ وفاة الحكيم الترمذي، ولكن الدارس لتاريخ حياة الحكيم الترمذي يستطيع أن يذهب إلى أن وفاته كانت بعد عام ٣١٨هـ، وقد يكون ذلك في ٣١٩هـ أو ٣٢٠هـ كما ذهب بروكلمان إلى ذلك.

مقدمة
في علم التصوف[1]

هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملّة. وأصله أن طريقة هؤلاء القوم، لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومَن بعدهم، طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يُقبِلُ عليه الجمهور من لذةٍ ومالٍ وجاهٍ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختُصَّ المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوِّفة. وقال القشيري رحمه الله: ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس. والظاهر أنه لقب. ومَن قال: اشتقاقه من الصفاء، أو من الصفة، فبعيد من جهة القياس اللغوي، قال: وكذلك من الصوف لأنهم لم يختصوا بلبسه.

قلت: والأظهر أن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف، وهم في الغالب مختصون بلبسه، لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف. فلما اختُص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخلق والإقبال على العبادة، اختُصوا بمآخذ مدركة لهم؛ وذلك أن الإنسان بما هو إنسان إنما يتميز عن سائر الحيوان بالإدراك، وإدراكه نوعان: إدراك للعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم؛ وإدراك للأحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والشكر، وأمثال ذلك. فالروح العاقل والمتصرف في البدن تنشأ من إدراكات وإرادات وأحوال، وهي التي يتميز بها الإنسان. وبعضها ينشأ من بعض، كما ينشأ العلم عن الأدلة، والفرح والحزن عن إدراك المؤلم أو المتلذَّذ به، والنشاط عن

---

(١) مأخوذة من تاريخ ابن خلدون «المقدمة» طبعة دار الكتب العلمية ١/ ٥١٤ ـ ٥٢٦.

الحمام، والكسل عن الإعياء. وكذلك المريد في مجاهدته وعبادته، لا بد وأن ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة. وتلك الحالة إما أن تكون نوع عبادة، فترسخ وتصير مقاماً للمريد؛ وإما أن لا تكون عبادة، وإنما تكون صفة حاصلة للنفس. من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات. ولا يزال المريد يترقى من مقام إلى مقام، إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة. قال ﷺ: «مَن مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة». فالمريد لا بدَّ له من الترقي في هذه الأطوار، وأصلها كلها الطاعة والإخلاص، ويتقدّمها الإيمان ويصاحبها، وتنشأ عنها الأحوال والصفات نتائج وثمرات. ثم تنشأ عنها أخرى وأخرى إلى مقام التوحيد والعرفان. وإذا وقع تقصير في النتيجة أو خلل فنعلم أنه إنما أتى من قبل التقصير في الذي قبله. وكذلك في الخواطر النفسانية والواردات القلبية. فلذا يحتاج المريد إلى محاسبة نفسه في سائر أعماله، وينظر في حقائقها؛ لأن حصول النتائج عن الأعمال ضروري وقصورها من الخلل فيها كذلك. والمريد يجد ذلك بذوقه ويحاسب نفسه على أسبابه. ولا يشاركهم في ذلك إلا القليل من الناس، لأن الغفلة عن هذا كأنها شاملة.

وغاية أهل العبادات، إذا لم ينتهوا إلى هذا النوع، أنهم يأتون بالطاعات مخلصة من نظر الفقه في الأجزاء والامتثال. وهؤلاء يبحثون عن نتائجها بالأذواق والمواجد، ليطّلعوا على أنها خالصة من التقصير أولاً؛ فظهر أن أصل طريقتهم كلها محاسبة النفس على الأفعال والتروك، والكلام في هذه الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات؛ ثم تستقر للمريد مقاماً، ويترقى منها إلى غيرها. ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم، إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة. فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف، اصطلحنا عن التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه. فلهذا اختُص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه. وصار علم الشريعة على صنفين: صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا، وهي الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات؛ وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها، والكلام في الأذواق والمواجد العارضة في طريقها، وكيفية الترقي منها من ذوق إلى ذوق، وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك.

فلما كُتبت العلوم ودُوِّنت، وألَّف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك، كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقتهم. فمنهم مَن كتب في الورع

ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك، كما فعله المحاسبي في كتاب الرعاية له؛ ومنهم مَن كتب في آداب الطريقة وأذواق أهلها ومواجدهم في الأحوال كما فعله القشيري في كتاب الرسالة، والسهروردي في كتاب عوارف المعارف وأمثالهم. وجمع الغزالي رحمه الله بين الأمرين في كتاب الإحياء، فدوَّن فيه أحكام الورع والاقتداء، ثم بيَّن آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم. وصار علم التصوف في الملة علماً مدوَّناً، بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط وكانت أحكامها إنما تُتلقى من صدور الرجال، كما وقع في سائر العلوم التي دُوِّنت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك.

ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف حجاب الحس، والاطلاع على عوالم من أمر الله، ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها. والروح من تلك العوالم. وسبب هذا الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس، وقويت أحوال الروح، وغلب سلطانه وتجدَّد نشؤه، وأعان على ذلك الذِّكر؛ فإنه كالغذاء لتنمية الروح، ولا يزال في نمو وتزيُّد، إلى أن يصير شهوداً بعد أن كان علماً. ويكشف حجاب الحس، ويُتم وجود النفس الذي لها من ذاتها، وهو عين الإدراك. فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الإلهي، وتقرب ذاته في تحقق حقيقتها في الأفق الأعلى، أفق الملائكة. وهذا الكشف كثيراً ما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم. وكذلك يدركون كثيراً من الواقعات قبل وقوعها ويتصرفون بهممهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية، وتصير طوع إرادتهم. فالعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا يتصرفون، ولا يخبرون عن حقيقة شيء لم يؤمروا بالتكلم فيه؛ بل يعدون ما يقع لهم من ذلك محنة، ويتعوَّذون منه إذا هاجمهم. وقد كان الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه المجاهدة، وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ؛ لكنهم لم يقع لهم بها عناية. وفي فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم كثير منها. وتبعهم في ذلك أهل الطريقة، ممن اشتملت رسالة القشيري على ذكرهم، ومَن تبع طريقتهم من بعدهم.

ثم إن قوماً من المتأخرين انصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب والكلام في المدارك التي وراءه، واختلفت طرق الرياضة عنهم في ذلك، باختلاف تعليمهم في إماتة القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكر، حتى يحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها بتمام نشوتها وتغذيتها. فإذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر في

مداركها حينئذٍ، وأنهم كشفوا ذوات الوجود وتصوروا حقائقها كلها من العرش إلى الطشّ. هكذا قال الغزالي رحمه الله في كتاب الإحياء بعد أن ذكر صورة الرياضة.

ثم إن هذا الكشف لا يكون صحيحاً كاملاً عندهم، إلا إذا كان ناشئاً عن الاستقامة؛ لأن الكشف قد يحصل لصاحب الجوع والخلوة، وإن لم يكن هناك استقامة كالسحرة وغيرهم من المرتاضين. وليس مرادنا إلا الكشف الناشىء عن الاستقامة. ومثاله أن المرآة الصقيلة إذا كانت محدَّبة أو مقعَّرة، وحوذي بها جهة المرئي؛ فإنه يتشكل فيه معوجاً على غير صورته. وإن كانت مسطحة تشكل فيها المرئي صحيحاً. فالاستقامة للنفس، كالانبساط للمرآة، فيما ينطبع فيها من الأحوال. ولما عني المتأخرون بهذا النوع من الكشف، تكلموا في حقائق الموجودات العلوية والسفلية، وحقائق الملك والروح والعرش والكرسي وأمثال ذلك، وقَصُرت مدارك مَن لم يشاركهم في طريقهم عن فهم أذواقهم ومواجدهم في ذلك. وأهل الفتيا بين منكرٍ عليهم ومسلِّم لهم. وليس البرهان والدليل بنافع في هذه الطريق، ردًّا وقبولاً؛ إذ هي من قبيل الوجدانيات.

تفصيل وتحقيق:

يقع كثيراً في كلام أهل العقائد، من علماء الحديث والفقه أن الله تعالى مباين لمخلوقاته. ويقع للمتكلمين أنه لا مباين ولا متصل. ويقع للفلاسفة أنه لا داخل العالم ولا خارجه. ويقع للمتأخرين من المتصوفة أنه متحد بالمخلوقات: إما بمعنى الحلول فيها؛ أو بمعنى أنه هو عينها، وليس هناك غيره جملة ولا تفصيلاً. فلنبيِّن تفصيل هذه المذاهب ونشرح حقيقة كل واحد منها، حتى تتضح معانيها فنقول، إن المباينة تقال لمعنيين.

أحدها المباينة في الحيِّز والجهة، ويقابله الاتصال. وتشعر هذه المقابلة على هذه التقيُّد بالمكان: إما صريحاً، وهو تجسيم؛ أو لزوماً وهو تشبيه من قبيل القول بالجهة. وقد نقل مثله عن بعض علماء السلف من التصريف بهذه المباينة، فيحتمل غير هذا المعنى. من أجل ذلك أنكر المتكلمون هذه المباينة وقالوا: لا يقال في البارىء أنه مباين مخلوقاته، ولا متصل بها، لأن ذلك إنما يكون للمتحيزات. وما يقال من أن المحل لا يخلو عن الاتصاف بالمعنى وضده، فهو مشروط بصحة الاتصاف أولاً، وأما مع امتناعه فلا؛ بل يجوز الخلو عن المعنى وضدّه، كما يقال في الجماد، لا عالمٌ ولا جاهلٌ ولا قادرٌ ولا عاجزٌ ولا كاتبٌ ولا أُمّي. وصحة الاتصاف

بهذه المباينة مشروط بالحصول في الجهة على ما تقرر من مدلولها. والبارىء سبحانه منزَّه عن ذلك. ذكره ابن التلمساني في شرح اللمع لإمام الحرمين وقال: «ولا يقال في البارىء مباين للعالَم ولا متصل به، ولا داخل فيه ولا خارج عنه. وهو معنى ما يقوله الفلاسفة أنه لا داخل العالم ولا خارجه، بناء على وجود الجواهر غير المتحيِّزة. وأنكرها المتكلمون لما يلزم من مساواتها للبارىء في أخص الصفات، وهو مبسوط في علم الكلام.

وأما المعنى الآخر للمباينة، فهو المغايرة والمخالفة؛ فيقال: البارىء مباين لمخلوقاته في ذاته وهويته ووجوده وصفاته. ويقابله الاتحاد والامتزاج والاختلاط. وهذه المباينة هي مذهب أهل الحق كلهم من جمهور السلف وعلماء الشرائع والمتكلمين والمتصوفة الأقدمين كأهل الرسالة ومَن نحا منحاهم. وذهب جماعة من المتصوفة المتأخرين الذين صيَّروا المدارك الوجدانية علمية نظرية، إلى أن البارىء تعالى متحد بمخلوقاته في هويته ووجوده وصفاته. وربما زعموا أنه مذهب الفلاسفة قبل أرسطو، مثل أفلاطون وسقراط؛ وهو الذي يعيِّنه المتكلمون حيث ينقلونه في علم الكلام عن المتصوفة ويحاولون الرد عليه لأنه ذاتان، تنتفي إحداهما، أو تندرج اندراج الجزء؛ فإن تلك مغايرة صريحة، ولا يقولون بذلك. وهذا الاتحاد هو الحلول الذي تدَّعيه النصارى في المسيح عليه السلام، وهو أغرب لأنه حلول قديم في محدَث أو اتحاده به. وهو أيضاً عين ما تقوله الإمامية من الشيعة في الأئمة. وتقرير هذا الاتحاد في كلامهم على طريقين:

الأولى: أن ذات القديم كائنة في المحدثات محسوسها ومعقولها، متحدة بها في المتصورين، وهي كلها مظاهر له، وهو القائم عليها، أي المقوِّم لوجودها، بمعنى لولاه كانت عدماً وهو رأي أهل الحلول.

الثانية: طريق أهل الوحدة المطلقة وكأنهم استشعروا من تقرير أهل الحلول الغيرية المنافية لمعقول الاتحاد؛ فنفوها بين القديم وبين المخلوقات في الذات والوجود والصفات. وغالطوا في غيرية المظاهر المدرَكة بالحس والعقل بأن ذلك من المدارك البشرية، وهي أوهام. ولا يريدون الوهم الذي هو قسيم العلم والظن والشك؛ وإنما يريدون أنها كلها عدم في الحقيقة، وجود في المدرك البشري فقط. ولا وجود بالحقيقة إلا للقديم، لا في الظاهر ولا في الباطن كما نقرره بعد، بحسب الإمكان. والتعويل في تعقُّل ذلك على النظر والاستدلال، كما في المدارك البشرية، غير مفيد؛ لأن ذلك إنما ينقل من المدارك الملكية؛ وإنما هي حاصلة للأنبياء

بالفطرة ومن بعدهم للأولياء بهدايتهم. وقصدُ مَن يقصد الحصول عليها بالطريقة العلمية ضلال. وربما قصد بعض المصنفين ذلك في كشف الموجودات وترتيب حقائقه على طريق أهل المظاهر فأتى بالأغمض فالأغمض.

وربما قصد بعض المصنفين بيان مذهبهم في كشف الوجود وترتيب حقائقه؛ فأتى بالأغمض فالأغمض، بالنسبة إلى أهل النظر والاصطلاحات والعلوم. كما فعل الفرغاني، شارح قصيدة ابن الفارض، في الديباجة التي كتبها في صدر ذلك الشرح؛ فإنه ذكر في صدور الوجود عن الفاعل وترتيبه، أن الوجود كله صادر عن صفة الوحدانية، التي هي مظهر الأحدية، وهما معاً صادران عن الذات الكريمة التي هي عين الوحدة لا غير. ويسمون هذا الصدور بالتجلي.

وأول مراتب التجليات عندهم تجلي الذات على نفسه، وهو يتضمن الكمال بإفاضة الإيجاد والظهور، لقوله في الحديث الذي يتناقلونه: «كنت كنزاً مخفيًا، فأحببت أن أُعرف، فخلقتُ الخلقَ ليعرفوني». وهذا الكمال في الإيجاد المتنزِّل في الوجود وتفصيل الحقائق، وهو عندهم عالم المعاني والحضرة الكمالية والحقيقة المحمدية، وفيها حقائق الصفات واللوح والقلم وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين، والكُمَّل من أهل الملة المحمدية. وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية. ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى في الحضرة البهائيَّة، وهي مرتبة المثال؛ ثم عنها العرش، ثم الكرسي، ثم الأفلاك، ثم عالم العناصر، ثم عالم التركيب. هذا في عالم الرَّتق، فإذا تجلت، فهي في عالم الفتق. انتهى.

ويسمى هذا المذهب مذهب أهل التجلي والمظاهر والحضرات، وهو كلام لا يقدر أهل النظر على تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه، وبُعد ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل. وربما أنكر بظاهر الشرع هذا الترتيب فإنه لا يُعرف في شيء من مناحيه. وكذلك ذهب آخرون منهم إلى القول بالوحدة المطلقة، وهو رأي أغرب من الأول في تعقله وتفاريعه، يزعمون فيه أن الوجود له قوى في تفاصيله، بها كانت حقائق الموجودات وصورها وموادها.

والعناصر إنما كانت بما فيها من القوى، وكذلك مادتها لها في نفسها قوة بها كان وجودها. ثم إن المركبات فيها تلك القوى متضمنة في القوة التي كان بها التركيب. كالقوة المعدنية فيها قوى العناصر بهيولاها، وزيادة القوة المعدنية؛ ثم القوة الحيوانية تتضمن القوة المعدنية وزيادة قوتها في نفسها؛ وكذا القوة الإنسانية مع

الحيوانية؛ ثم الفلك يتضمن القوة الإنسانية وزيادة. وكذا الذوات الروحانية والقوة الجامعة للكل من غير تفصيل، هي القوة الإلهية التي انبثَّت في جميع الموجودات كلية وجزئية، وجمعَتها وأحاطت بها من كل وجه، لا من جهة الظهور ولا من جهة الخفاء ولا من جهة الصورة، ولا من جهة المادة؛ فالكل واحد وهو نفس الذات الإلهية، وهي في الحقيقة واحدة بسيطة، والاعتبار هو المفصِّل لها؛ كالإنسانية مع الحيوانية. ألا ترى أنها مندرجة فيها وكائنة بكونها. فتارة يمثِّلونها بالجنس مع النوع، في كل موجود كما ذكرناه؛ وتارة بالكل مع الجزء، على طريقة المثال. وهم في هذا كله يفرون من التركيب والكثرة بوجه من الوجوه، وإنما أوجبها عندهم الوهم والخيال. والذي يظهر من كلام ابن دهقان في تقرير هذا المذهب، أن حقيقة ما يقولونه في الوحدة شبيه بما يقوله الحكماء في الألوان، من أن وجودها مشروط بالضوء؛ فإذا عُدم الضوء لم تكن الألوان موجودة بوجه.

وكذا عندهم الموجودات المحسوسة كلها مشروطة بوجود المُدْرَك الحسي؛ بل والموجودات المعقولة والمتوهَّمَة أيضاً مشروطة بوجود المدرك العقلي؛ فإذا الوجود المفصل كله مشروط بوجود المدرك البشري. فلو فرضنا عدم المدرك البشري جملة لم يكن هناك تفصيل في الوجود، بل هو بسيط واحد. فالحَرُّ والبرد، والصلابة واللين، بل والأرض والماء، والنار والسماء والكواكب، إنما وُجدت لوجود الحواس المدركة لها؛ لما جُعِل في المُدرَك من التفصيل، الذي ليس في الموجود، وإنما هو في المدارك فقط. فإذا فُقدت المدارك المفصَّلة فلا تفصيل، إنما هو إدراك واحد، وهو أنا لا غيره. ويعتبرون ذلك بحال النائم؛ فإنه إذا نام وفقد الحس الظاهر، فقد كل محسوس، وهو في تلك الحالة، إلا ما يُفَصِّله له الخيال. قالوا: فكذلك اليقظان إنما يعتبر تلك المدركات كلها على التفصيل بنوع مدركه البشري، ولو قدِّرَ فقدُ مدركه فُقِدَ التفصيل؛ وهذا معنى قولهم: الوهم، لا الوهم الذي هو من جملة المدارك البشرية.

وهذا ملخص رأيهم على ما يُفهم من كلام ابن دهقان، وهو في غاية السقوط؛ لأنا نقطع بوجود البلد الذي نحن مسافرون إليه يقيناً مع غيبته عن أعيننا، وبوجود السماء المُظِلة والكواكب وسائر الأشياء الغائبة عنا. والإنسان قاطع بذلك، ولا يكابر أحد نفسه في اليقين، مع أن المحققين من المتصوفة المتأخرين يقولون: إن المريد عند الكشف ربما يعرض له توهم هذه الوحدة، ويسمى ذلك عندهم مقام الجمع ثم يترقى عنه إلى التمييز بين الموجودات، ويُعَبِّرون عن ذلك بمقام الفرق، وهو مقام

العارف المحقق. ولا بد للمريد عندهم من عقبة الجمع، وهي عقبة صعبة؛ لأنه يُخشى على المريد من وقوفه عندها، فتخسر صفقته. فقد تبينتَ مراتب أهل هذه الطريقة.

ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس، توغلوا في ذلك؛ فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة كما أشرنا إليه، وملأوا الصحف منه، مثل الهروي، في كتاب المقامات له، وغيره. وتبعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما ثم ابن العفيف وابن الفارض والنجم الإسرائيلي في قصائدهم. وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضاً بالحلول وإلهية الأئمة، مذهباً لم يُعرف لأولهم؛ فأُشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر. واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم. وظهر في كلام المتصوفة القول بالقُطب، ومعناه رأس العارفين. يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة، حتى يقبضه الله. ثم يورِّث مقامه الآخر من أهل العرفان. وقد أشار إلى ذلك ابن سينا في كتاب الإشارات، في فصول التصوف منها، فقال: «جلَّ جنابُ الحق أن يكون شِرْعَة لكل وارد، أو يطَّلِع عليه إلا الواحد بعد الواحد». وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي؛ وإنما هو من أنواع الخطابة، وهو بعينه ما تقوله الرافضة في توارث الأئمة عندهم. فانظر كيف سرقت طباع هؤلاء القوم هذا الرأي من الرافضة ودانوا به. ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب، كما قاله الشيعة في النقباء. حتى أنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف، ليجعلوه أصلاً لطريقتهم ونِحلتهم، رفعوه إلى علي رضي الله عنه، وهو من هذا المعنى أيضاً. وإلاّ فعليٌّ، رضي الله عنه، لم يُختص من بين الصحابة بِنِحلة ولا طريقة في لباس ولا حال. بل كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، أزهد الناس بعد رسول الله ﷺ وأكثرهم عبادة. ولم يُختص أحد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه على الخصوص، بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة.

تشهد بذلك سِيَرهم وأخبارهم. نعم إن الشيعة يخيِّلون بما ينقلون من ذلك اختصاص علي بالفضائل دون مَن سواه من الصحابة ذهاباً مع عقائد التشيُّع المعروفة لهم. والذي يظهر أن المتصوفة بالعراق، لما ظهرت الإسماعيلية من الشيعة، وظهر كلامهم في الإمامة وما يرجع إليها ما هو معروف؛ فاقتبسوا من ذلك الموازنة بين الظاهر والباطن وجعلوا الإمامة لسياسة الخلق في الانقياد إلى الشرع، وأفردوه بذلك أن لا يقع اختلاف كما تقرر في الشرع. ثم جعلوا القُطب لتعليم المعرفة بالله لأنه

رأس العارفين، وأفردوه بذلك تشبيهاً بالإمام في الظاهر، وأن يكون على وزانه في الباطن وسمَّوْهُ قطباً لمدار المعرفة عليه، وجعلوا الأبدال كالنقباء مبالغة في التشبيه. فتأمَّل ذلك.

يشهد بذلك كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي، وما شحنوا به كتبهم في ذلك، مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفي أو إثبات؛ وإنما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم. والله يهدي إلى الحق.

تذييل: وقد رأيت أن أجلب هنا فصلاً من كلام شيخنا العارف، كبير الأولياء بالأندلس، أبي مَهدي عيسى بن الزيات، كان يقع له أكثر الأوقات على أبيات الهروي التي وقعت له في كتاب المقامات توهم القول بالوحدة المطلقة أو يكاد يصرح بها وهي قوله:

ما وحّد الواحِدَ من واحِدٍ ... إذْ كلُّ مَن وحَّدَهُ جاحِدُ
توحيدُ مَن يَنطِقُ عن نَعْتِهِ ... تثنيَةٌ أَبطَلَها الواحِدُ
توحيدُهُ إيَّاهُ تَوْحيدُهُ ... ونعتُ مَن ينعَتُه لاحِدُ

فيقول رحمه الله على سبيل العذر عنه: «استشكل الناس إطلاق لفظ الجحود على كل مَن وحَّد الواحد ولفَظَ الإلحاد على مَن نعته ووصفه. واستبشعوا هذه الأبيات وحملوا قائلها على الكفر واستخفوه. ونحن نقول على رأي هذه الطائفة أن معنى التوحيد عندهم انتفاء عين الحدوث بثبوت عين القِدَم وأن الوجود كله حقيقة واحدة وآنية واحدة. وقد قال أبو سعيد الخرَّاز من كبار القوم: الحق عين ما ظهر وعين ما بطن. ويرون أن وقوع التعدد في تلك الحقيقة وجود الاثنَيْنِيَّة. وهم باعتبار حضرات الحس بمنزلة صُوَر الضلال والصدا والمرأى. وأن كل ما سوى عين القِدَم، إذا استُتْبع فهو عدم. وهذا معنى: كان الله؛ ولا شيء معه؛ وهو الآن على ما هو عليه، كان عندهم. ومعنى قول لبيدٍ الذي صدَّه رسول الله ﷺ في قوله: «ألا كلُّ شيء، ما خلا الله، باطل». قالوا فمَن وحَّد ونعت، فقد قال بموجد مُحْدَث، هو نفسه؛ وتوحيد محدَث هو فعله، موجد قديم، هو معبود.

وقد تقدم معنى التوحيد انتفاء عين الحدوث، وعين الحدوث الآن ثابتة بل متعددة، والتوحيد مجحود، والدعوى كاذبة. كمَن يقول لغيره، وهما معاً في بيت واحد: ليس في البيت غيرك! فيقول الآخر بلسان حاله: لا يصح هذا إلا لو عُدِمْتَ

أنت!. . . وقد قال بعض المحققين في قولهم: «خلق الله لزمان»، هذه ألفاظ تُناقض أصولها، لأن خلق الزمان متقدم على الزمان، وهو فعل لا بد من وقوعه في الزمان؛ وإنما حمل ذلك ضيق العبارة عن الحقائق وعجز اللغات عن تأدية الحق فيها وبها. فإذا تحقق أن الموحد هو الموحد، وعدم ما سواه جملة، صح التوحيد حقيقة. وهذا معنى قولهم: «لا يعرف اللّهَ إلا اللّهُ». ولا حرج على مَن وحَّد الحق مع بقاء الرسوم والآثار؛ وإنما هو من باب: «حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين». لأن ذلك لازم التقييد والعبودية والشفعية. ومَن ترقى إلى مقام الجمع كان في حقه نقصاً، مع علمه بمرتبته، وأنه تلبيس تستلزمه العبودية ويرفعه الشهود، ويطهر من دنس حدوثه عين الجمع. وأعرق الأصناف في هذا الزعم القائلون بالوحدة المطلقة. ومدار المعرفة بكل اعتبار على الانتهاء إلى الواحد؛ وإنما صدر هذا القول من الناظم على سبيل التحريض والتنبيه والتفطين، لمقام أعلى، ترتفع فيه الشفعية ويحصل التوحيد المطلق، عيناً لا خطاباً. وعبارة فمَن سلَّم استراح، ومَن نازعته حقيقة أنِسَ بقوله: كنت سمعه وبصره. وإذا عرفتَ المعاني لا مشاحة في الألفاظ. والذي يفيده هذا كله تحقق أمر فوق هذا الطور، لا نطقَ فيه ولا خبرَ عنه. وهذا المقدار من الإشارة كاف. والتعمق في مثل هذا حجاب، وهو الذي أوقع في المقالات المعروفة». انتهى كلام الشيخ أبي مَهدي الزيات، ونقلتُه من كتاب الوزير ابن الخطيب الذي ألَّفه في المحبة، وسماه التعريف بالحب الشريف. وقد سمعته من شيخنا أبي مهدي مراراً! إلا أني رأيت رسوم الكتاب أوعى له، لطول عهدي به. والله الموفق.

ثم إن كثيراً من الفقهاء وأهل الفتيا، انتُدبوا للرد على هؤلاء المتأخرين في هذه المقالات وأمثالها، وشملوا بالنكير سائر ما وقع لهم في الطريقة. والحق أن كلامهم معهم فيه تفصيل، فإن كلامهم في أربعة مواضع: أحدها الكلام على المجاهدات وما يحصل من الأذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الأعمال، لتحصُل تلك الأذواق، التي تصير مقاماً ويُترقى منه إلى غيره كما قلناه؛ وثانيها الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالَم الغيب، مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد، وتركيب الأكوان في صدورها عن موجدها ومكونها كما مر؛ وثالثها التصرفات في العوالم والأكوان بأنواع الكرامات؛ ورابعها ألفاظ موهَمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم، يعبِّرون عنها في

اصطلاحهم بالشطحات، تُستشكل ظواهرها، فمنكر ومحسن ومتأول. فأما الكلام في المجاهدات والمقامات، وما يحصل من الأذواق والمواجد في نتائجها، ومحاسبة النفس على التقصير في أسبابها؛ فأمر لا مدفع فيه لأحد، وأذواقهم فيه صحيحة، والتحقق بها هو عين السعادة؛ وأما الكلام في كرامات القوم وإخبارهم بالمغيِّبات وتصرفهم في الكائنات، فأمر صحيح غير منكر. وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها فليس ذلك من الحق. وما احتج به الأستاذ أبو إسحاق الأسفراييني من أئمة الأشعرية على إنكارها، لالتباسها بالمعجزة، فقد فرّق المحققون من أهل السنة بينهما بالتحدي، وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به. قالوا: ثم إن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور، لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية؛ فإن صفة نفسها التصديق. فلو وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال. هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات، وإنكارها نوع مكابرة.

وقع وقع للصحابة وأكابر السلف كثير من ذلك، وهو معلوم مشهور. وأما الكلام في الكشف وإعطاء حقائق العُلويات وترتيب صدور الكائنات؛ فأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه، لما أنه وجداني عندهم؛ وفاقد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه. واللغات لا تعطي دلالة على مرادهم منه؛ لأنها لم توضع إلا للمتعارف، وأكثره من المحسوسات. فينبغي أن لا نتعرض لكلامهم في ذلك، ونتركه فيما تركناه من المتشابه. ومَن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات، على الوجه الموافق لظاهر الشريعة؛ فأكرِم بها سعادة. وأما الألفاظ الموهَمَة التي يعبّرون عنها بالشَّطحات، ويؤاخذهم بها أهل الشرع، فاعلم أن الإنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس، والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه، وصاحب الغيبة غير مخاطِب، والمجبور معذور.

فمَن عُلم منهم فضله واقتداؤه، حُمل على القصد الجميل من هذا وأمثاله. وإن العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها، كما وقع لأبي يزيد البسطامي وأمثاله. ومَن لم يُعلم فضله ولا اشتهر، فمؤاخَذ بما صدر عنه من ذلك، إذا لم يتبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه. وأما مَن تكلم بمثلها، وهو حاضر في حسه، ولم يملكه الحال، فمؤاخذ أيضاً. ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر المتصوِّفة بقتل الحلاَّج، لأنه تكلم في حضور، وهو مالكٌ لحاله. والله أعلم.

وسلفُ المتصوفة من أهل الرسالة أعلام الملة الذين أشرنا إليهم من قبل، لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب، ولا هذا النوع من الإدراك؛ إنما همهم الاتباع والاقتداء ما استطاعوا. ومَن عَرَضَ له شيء من ذلك أعرض عنه ولم يحفل به، بل يفِرُّون منه ويرون أنه من العوائق والمحن، وأنه إدراك من إدراكات النفس مخلوق حادث، وأن الموجودات لا تنحصر في مدارك الإنسان. وعلم الله أوسع وخلقه أكبر، وشريعته بالهداية أملك؛ فلم ينطقوا بشيء مما يدركون. بل حظروا الخوض في ذلك ومنعوا مَن يُكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده، بل ويلتزمون طريقتهم كما كانوا في عالَم الحس قبل الكشف عن الاتباع والاقتداء، ويأمرون أصحابهم بالتزامها. وهكذا ينبغي أن يكون حال المريد. والله الموفق للصواب.

مقدمة الكتاب

قال أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن الترمذي رحمة الله عليه: الحمد لله رب العالمين، ولي الحمد وأهله. أما بعد.

فإن الله تعالى خلق الآدميين لخدمته، وخلق ما سواهم سخرة لهم، فقال تعالى في تنزيله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٨]، ثم قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، فجعل في كلٍّ مسخراً لما يحتاج إليه هؤلاء الخدم، وما يرجع نفعه إليهم.

وهم كلهم قانتون، يؤدون السخرة إلى هؤلاء الخدم، فأظهر خلقهم من القدرة بقوله: ﴿كُن﴾[1] [يٓس: ٨٢] وأظهر خلق هؤلاء الخدم من المحبة بيده، فعجن طينته، وصوَّره بيده، ثم جعله ذا أجزاء، كل جزء منه يعمل عملاً غير عمل الآخر، ثم نفخ فيه من روحه، وهو روح الحياة.

ونفست الطينة[2] فبدت النفس واستقرت، وتنفست في الجوف، فجعل ظاهره

---

(١) ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم ١١ مرة. وهي:

١ ـ ٢ ـ ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧ وآل عمران: ٣].

٣ ـ ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

٤ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

٥ ـ ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

٦ ـ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨﴾ [الحجر: ٩٨].

٧ ـ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل: ٤٠].

٨ ـ ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥].

٩ ـ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يٓس: ٨٢].

١٠ ـ ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾ [الزمر: ٦٦].

١١ ـ ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨].

(٢) النَّفْسُ: الروح، وخرجت نفسه، ونفست من تنفس ونفس، وهي دليل الحياة ومظهرها، والنَّفَسُ: الريح تدخل وتخرج من أنفس الحي ذي الرئة وفمه حال التنفس. ونفست الطينة: دبت فيها الروح (القاموس المحيط «نفس» ولسان العرب «نفس»).

يدين ذواتي أصابع ومفاصل، يبسط ويقبض، ورجلين موشحتين في الوركين، ذواتي ساقين، وقدمين.. يختلف بهما في قطع المسافات، وعينين بهما يشتمل على الألوان لذة وجهداً، وأذنين بهما يتناول الأصوات لذة وخبراً، ولساناً يديره في قبو حنكه إلى شفتيه ليتلفظ بنعماته[١] من صدره إلى شفتيه.

مؤدية تلك النغمات معاني الأمور التي يعقل، وتتردد في صدره صور تلك الأمور، فتصير تلك الصور حروفاً مؤلفة، فيبرزها بصوت يسمع به آذان المستمعين له، حق تصير تلك الأسماع قمعاً لهذا الصوت، فيتحول ما في صدر هذا من علم الأمور، إلى صدر المستمع من طريق فم هذا إلى أذن الآخر.

فيكون قد أفرغ ما في صدره من صور الأمور، ومعانيها بالحروف والصوت، إلى صدر صاحبه.

وجعل له منخرين للنفس والمشام، ومعدة صيَّرها دار رزقه، وباب هذه الدار متصل بالقبو، وبابين في أسفل جسده، أحدهما مخرج للذرية، والآخر مخرج الفضول والأذى، وذلك أن العدو لما غرّه حتى أكل من الشجرة[٢]، وجد السبيل إلى معدته بتلك الأكلة التي أطاعه فيها، فجعله مستقره، فنتن ما في المعدة لرجاسة العدو.

فمن هاهنا وجب علينا غسل الأطراف مما يظهر من المعدة من الغائط والبول وريحهما.

ثم وضع في جوفه بضعة جوفاء سماها قلباً وفؤاداً، فما بطن منها فهو القلب، وما ظهر منها فهو الفؤاد.

وإنما سمي قلباً لأنه ينقلب بتقليب الله عزّ وجل إياه، لأنه بين أصبعين من أصابع الرحمٰن عزّ وجل، يقلبه بمشيئاته فيه[٣]، وسمي فؤاداً لأنه غشاء لتلك

---

(١) بنعماته: كذا بالأصل، بالعين المهملة، ولعلها «بنغماته» بالغين المعجمة، ودليله قوله بعد ذلك: مؤدية تلك النغمات.

(٢) يشير إلى إغراء إبليس، لعنه الله، آدم عليه السلام بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عزّ وجل من الأكل منها. فأكل آدم منها بإغراء إبليس.

(٣) يشير إلى الحديث الشريف: عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ قال: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمٰن، كقلب واحد، يصرّفه حيث يشاء» ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرّف القلوب! صرّف قلوبنا على طاعتك».
أخرجه مسلم في القدر حديث ١٧، والترمذي في القدر باب ٧، والدعوات باب ٨٩، وابن ماجه في المقدمة باب ١٣، وأحمد في المسند ٢/١٦٨، ١٧٣، ٦/١٨٢، ٢٥١، ٣٠٢، ٣١٥.

البضعة الباطنة، ومنه يقال: هذا خبز فنيد[١]، وخبز ملة[٢]، لأنه خبزة قد ظاهرها أخرى.

وجعل له على هذا الفؤاد عينين وأذنين، وباباً في الصدر، وصيَّر القلب بيتاً له عينان وأذنان، وباباً في الصدر، وجعل الصدر ساحة هذا البيت، وجعل إلى جانبه بضعة أخرى سماها كبداً.

وجعلها مجمع عروق هذا الجسد كله، ومنه ينقسم ما يخرج من المعدة من قوة الطعام الذي طحنته المعدة، حتى صار دماً طرياً، فجرى في جميع العروق.

وألصق بأسفله بضعة أخرى، فسماها طحالاً، وإلى جانب الأخرى سماها رئة، ومسكن النفس فيها، ومنها تتنفس النفس لحياتها التي فيها، فتخرج الأنفاس إلى الفم والمنخرين.

ثم وضع بين القلب والرئة وعاءً رقيقاً، فيه ريح هفّافة، تجري في العروق مجرى الدم، وأصل تلك الريح من باب النار، مخلوقة من نار جهنم، لم يصل إليها سلطان الله وغضبه، فتسود كما اسودت جهنم.

بل هي نار مضيئة حفت النار بها، موضوع هذه النار الفرح والزينة، وسماها شهوة، وإنما سميت شهوة لاهتشاش النفس إليها، يقال: اهتشت واشتهت.

الاهتشاش في الظاهر، والاشتهاء في الباطن، وكلاهما في الحروف عددهما سواء، إلا أنه قدّم الهاء هاهنا وأخّر هناك، ليكون فرقاً بين النوعين.

فالنفس إذا هبّت تلك الريح من ذلك الوعاء لعارض ذكر شيء، أحست النفس بذلك، فالتهبت نار الحرارة بتلك الريح، والنفس مسكنها في الرئة، ثم هي منفشة في جميع الجسد، والروح مسكنه في الرأس إلى أصل الأذنين، ومعقلها في الوتين[٣]، وهي منفشة في جميع الجسد، والروح فيه حياة، والنفس فيها حياة، فهما يعملان في جميع الجسد لحياتهما.

---

(١) الفِنْدُ: الغصن، والنوع، والقوم مجتمعة. وأفناد الليل: أركانه. و«صلى الناس على النبي ﷺ أفناداً أفناداً» أي فرادى بلا إمام، وقيل: جماعات جماعات (القاموس المحيط «فند»).

(٢) خبز الملة: ما يخبز في الملة، وهي الرماد الحار يحمى ليدفن فيه الخبز لينضج (لسان العرب «ملل»).

(٣) الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه. جمعه: وُتُنٌ وأوتنة (القاموس المحيط «وتن»).

حتى تتحرك الجوارح في جميع الجسد في الظاهر والباطن بالحياتين اللتين وضعتا فيهما، والروح نور فيه روح الحياة، والنفس ريح كدرة جنسها أرضية، وفيها روح الحياة. ووضع الرحمة في الكبد، والرأفة في الطحال، والمكر في الكليتين، وعلم الأشياء في الصدر.

وجعل مستقر الذهن في الصدر، ثم هو متفشٌ في البدن كله، والذهن يقبل العلم جملة، وقرينه الحفز، وجعل في ناصيته الفهم، وجعل له طريقاً إلى عين الفؤاد فالحفظ مستودع العلم.

فإذا احتاج الفؤاد إلى شيء لحظ إلى الحفظ، فأبرز الحفظ له علم ذلك الشيء المستودع الذي قد تعلمه.

وجعل ماء الذرية في صلبه، فمنه ماء أخذ عليه الميثاق يوم أخرجهم من الظهور[1]، فعرضهم على آدم ﷺ، ومنه ماء لم يؤخذ عليه الميثاق، وجعل مجراه من صلبه إلى نفسه. ووضع الفرح في قلبه، وجعل مجراه إلى صلبه، لتتأدى حرارة ذلك الفرح إلى الصلب، فتذيب ماء الصلب، فبقوة هذا الفرح يخرج ذلك الماء، فيدفق به، وإنما صار دفقاً لقوة الفرح، وهبوب رياحها، وضيق المخرج.

فإذا افتقد الإنسان الفرح عجز عن الدفق. فهذا لعامة الآدميين. ثم خصّ المؤمنين بنور العقل، فجعل مسكنه في الدماغ، وجعل له باباً من دماغه إلى صدره، ليشرق شعاعه بين عيني الفؤاد، ليدبر الفؤاد بذلك النور الأمور، فيميز بين الأمور ما حسن منها وما قبح.

ووضع نور التوحيد في باطن هذه البضعة، وهي القلب، وفيه نور الحياة فحيي القلب بالله تبارك وتعالى، وفتح عيني الفؤاد، فأشرق نور التوحيد إلى الصدر من باب القلب فأبصر عينا الفؤاد بنور الحياة التي بها نور التوحيد، فوحّد الله عزّ وجل، وعرفه.

وميّز العقل تلك العلوم التي أعطى الذهن في صدره جملة، فيصيرها شعباً شعباً، فصارت معرفة حين انشعبت، فهذا عمل العقل في الصدر.

---

(١) ومنه الحديث: عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان ـ يعني: عرفة، فأخرجه من صلبة كل ذرية درأها، فنثرهم بين يديه كالذرّ. . .» أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٧٢.

صفات ظاهرة وباطنة

والهوى أصله من نفس النار، فإذا خرج ذلك النفس من النار، احتمل من ذلك الحفوف من الشهوات بباب النار فيها الزينة والأفراح، فأورد على النفس.

فإذا نالت النفس ذلك الفرح والزينة، هاجت بما فيها من الفرح والزينة الموضوعة إلى جانبها في ذلك الوعاء، وهي ريح حارة، فدبّت في العروق، فامتلأت العروق منها في أسرع من الطرفة.

والعروق مشتملة على جميع الجسد، من القرن إلى القدم، فإذا دبّت في العروق، ولذّت النفس ديبها وانفشاشها في الجسد، وامتلأت النفس لذة، وهشّت إلى ذلك الشيء، فتلك شهوتها ولذتها.

فإذا تمكنت النفس بتلك الشهوة واللذة من جميع الجسد، فصارت تلك الشهوة نهمة على القلب، والنهمة غلبة الشهوة وغليانها، فإذا غلت الشهوة غلبت على القلب، فيصير القلب منهوماً، وهو أن تقهر القلب حتى تتمنه، فتستعمله بذلك، فيصير سلطان الهوى والشهوة مع النفس ومسكنها في البطن.

وسلطان المعرفة والعقل والعلم والفهم والحفظ والذهن في الصدر، وجعل المعرفة في القلب، والفهم في الفؤاد، والعقل في الدماغ، والحفظ قرينه.

وجعل للشهوة باباً من مستقره إلى الصدر، يفور دخان تلك الشهوات التي جاء بها الهوى، حتى يتأدّى ذلك إلى الصدر، فيحيط بفؤاده، وتبقى عينا الفؤاد في ذلك الدخان، وذلك الدخان اسمه الحمق، قد حال بين عيني الفؤاد وبين النظر إلى نور العقل ماذا يدبر له.

وكذلك الغضب إذا فار، فهو كالغيم يقف بين عيني الفؤاد حتى يصير العقل منكمناً، لأن العقل مستقره في الدماغ، وشعاعه مشرق إلى الصدر، فإذا خرج ذلك الغيم (غيم الغضب) من الجوف إلى الصدر، امتلأ الصدر منه، وبقيت عينا الفؤاد في ذلك الغيم.

لأن شعاع العقل قد انقطع، وحال الغيم بينه وبين الفؤاد، فصار الفؤاد من الكافر في ظلمة الكفر، وهي الغلفة التي ذكرها الله تعالى في التنزيل: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨] وقال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣]. وصار الفؤاد من المؤمن في دخان الشهوات وغيوم الكبر، فذلك غفلة.

ومن الكبر أصل الغضب والكبر في النفس. لما أحست بما ولى الله تعالى من خلقها، فيبقى ذلك الكبر فيها. فهذه صفة ظاهرة الآدمي وباطنة.

فوقعت الجباية من الله تعالى والخيرة على هذا الموحد، من كل ألف واحد، وبقي تسع مئة وتسعة وتسعون، رفع البال عنهم، وجعل باله لواحد من كل ألف من الآدميين، فقسم الحظوظ يوم المقادير بالبال، ورفض مَن لم يبالِ به، فخابوا عن الحظوظ.

فلما استخردهم[1] ذرية من الأصلاب استنطقهم، فاعترف له أهل الحظوظ من باله، طوعاً لقوله عزّ وجل حين قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. واعترف مَن خاب عن الحظوظ، ومَن لم ينل من باله بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ كرهاً، فذلك قوله عزّ وجل: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]، فيصيرهم فريقين: عن اليمين وعن الشمال.

ثم قال تعالى: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، أي لا أبالي بمغفرتي أن تنالهم، وهؤلاء في النار ولا أبالي، أي ولا أبالي بهؤلاء إلى أين يصيرون[2].

ثم ردّهم إلى صلب آدم عليه السلام، فيخرجهم في أيام الدنيا للأعمال وإقامة الحجة فكل مَن وقعت عليه جبايته واختياره له، وصبغ قلبه، أي غمس قلبه في ماء الرحمة حتى طهر به، وهو قوله عزّ وجل: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨] ثم أحياه بنور الحياة وقد كان قبل ذلك بضعة من لحم جوفاً.

فلما أحياه بنور الحياة تحرّك وفتح عينيه اللتين على الفؤاد، ثم هداه بنوره، وهو

---

(١) استخردهم: كذا بالأصل، ولعلها: استخرجهم. وفي القاموس المحيط «خرد»: الخريد والخرود: البكر لم تمسس، أو الخفرة الطويلة السكوت، الخافضة الصوت المستترة، وصوت خريدٌ: ليّنٌ عليه أثر الحياء. وأخرد: استحيا.

(٢) في الحديث الشريف: عن معاذ قال: إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ و﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ فقبض بيديه قبضتين فقال: «هذه في الجنة ولا أبالي، وهذه في النار ولا أبالي». أخرجه أحمد في المسند ٥/٢٣٩.

نور التوحيد، ونور العقل، فلما أشرف في صدره، واستقر الفؤاد وهو القلب إلى ذلك النور، فعرف ربه عزّ وجل بذلك، فذلك قوله عز وجل: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي بنور الحياة.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي نور التوحيد يمشي من ذلك النور في الناس.

ثم أوله قلبه بذلك النور إليه، حتى اطمأنت النفس وسكنت إلى أنه وحده لا إله غيره فعندها نطق اللسان عن طمأنينة النفس وموافقتها للقلب بلا إله إلا الله، وذلك قوله عزّ وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٠٠] وهو قوله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧﴾ [الفجر: ٢٧].

فلما اطمأنت النفس حين رأت تلك الزينة التي زيَّن العقل بين عيني الفؤاد توحيد الرب عزّ وجل، وجدت حلاوة حب الله تعالى، التي وردت على القلب مع نور التوحيد، فلما رأت تلك الزينة وجدت حلاوة الحب الذي في نور التوحيد، فعندها اطمأنت وسكنت إلى توحيده، فشهدت بلا إله إلا الله، وذلك قوله عزّ وجل: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ٧].

فلما نالت النفس تلك الزينة كرهت الكفر والفسوق والعصيان.

فالمؤمن إذا أذنب فإنما يعصي بالشهوة والنهمة وهو كاره للفسوق والعصيان، ومع الكراهية يفسق ويعصي بغفلة، ولا يقصد الفسق والعصيان كما قصد إبليس.

فتلك الكراهية موجودة فيه، والشهوة غالبة عليه، والكراهية من أجل التوحيد الذي فيه، إلا أن القلب مقهور بما فيه، والعقل منكمن، والصدر ممتلىء من دخان تلك الشهوة، والنفس بما أوردت قاهرة للقلب.

لأن العقل قد غلب، والمعرفة قد انفردت، والذهن قد تبدّد، والحفظ مع العقل منكمن في الدماغ، والنفس قد قامت على ذنبها، بما وجدت من القوة في تلك الشهوة، والعدو يزين ويرجي ويمني المغفرة، ويدل على التوبة، حتى يجرئه قلباً ويشجعه.

المجاهدة[1]

فلما كان العبد بهذه الصفة، أما بالمجاهدة، فقال عزّ وجل: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨].

ثم لما علم أن المجاهدة تشتد وتصلب على العباد، أخبرهم عن منّته وحسن صنيعه، وبره، ولطفه بهم، فقال عزّ وجل: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج: ٧٨].

يعلمهم أنه لو لم يجتبيهم، ولم يوقع اختياره عليهم، ما كانوا ينالون نور الرحمة ونور المعرفة، وكانوا أسارى في يد العدو، وحطباً للنار، فأخبرهم أنه اجتباهم.

ثم قال عزّ وجل: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج: ٧٨] يعلمهم أني حين ألزمت جوارحكم أمري ونهيي، لم أضيّق عليكم حتى تحرجوا، بل أبحت لكم ووسعت عليكم ما لا يضيق عليكم، حتى تفزعوا إلى الحرام.

ولم أحملكم فرائضي حملاً تعجزون عنه، ووسعت لكم في كل فريضة ما لم يضيق عليكم، وكل شهوة منعتكم عنها، أطلقت لكم من بعضها، فوضعت على كل جارحة من هذه السبع حداً، ووكلتكم بحفظها.

الجوارح السبع هي: اللسان، والسمع، والبصر، واليدان، والرجلان، والبطن، والفرج، وجعلت مستقر هذه الشهوة في البطن.

فإن اشتهى الكلام خرج سلطان تلك الشهوة إلى الصدر وإلى القلب، والقلب أمير على هذه الجوارح، فإذا غلب سلطان الشهوة وحلاوتها ولذتها على القلب،

---

(١) المجاهدة في اصطلاح الصوفية، عبارة عن الحرب مع النفس والشيطان. وفي خلاصة السلوك: المجاهدة: صدق الافتقار إلى الله تعالى بالانقطاع عن كل ما سواه. وقال جعفر الصادق: المجاهدة بذل النفس في رضاء الحق، وقال أبو عثمان: المجاهدة فطام النفس عن الشهوات، ونزع القلب عن الأماني والشبهات. (كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي ٢/ ١٤٧٠).

وانكمن سلطان المعرفة وحلاوتها ولذتها في القلب، وسلطان العقل وزينته وبهجته في الدماغ، تحيَّر الذهن عن التدبير، وخمد نور العلم في الصدر، فظهرت المعصية على الجوارح.

وإذا غلب سلطان المعرفة ولذتها وحلاوتها، وسلطان العقل وزينته وبهجته، احتدّ الذهن، واستنار العلم، وانتشر وأشرف، وقوي القلب، فقام منصباً متوجهاً بعين فؤاده إلى الله تعالى، وجاء المدد والعطاء، وظهرت العزيمة على ترك المعصية العارضة.

فإذا ظهرت العزيمة وجد القلب قوة على زجر النفس، ورفض ما عزمت عليه، فانقمعت النفس وذابت، وسكن غليان الشهوة، وماتت اللذة، وسكنت العروق، ودرست صورة تلك المعصية عن الصدر، وتخلّص العبد.

فأمر بالمجاهدة إذا عرض ذكر شيء على الصدر، وقد حرم الله عزّ وجل الشيء عليه وذلك أنه لما عرض الذكر اهتاجت النفس لما هاجها الهوى، وأورد العدو الزينة التي وضعت بين يديه، وجعل له السبيل إلى صدره ليزين.

وتلك الزينة هي الفرج الذي وصفنا أنه بباب النار، فأصله الفرح، وحشوه الزينة، وكلاهما من النار خلقاً، سميت شهوة لاهتشاش النفس، وهو قول رسول الله ﷺ: «حُفّت النار بالشهوات»[1].

ولذلك قال عمر رضي الله عنه في خطبته: (إن العدو مع الدنيا، وأرصاده مع الهوى، ومكره في الشهوات).

فإنما يصير العدو إلى العباد مع أفراح الدنيا وزينتها، ويرصد الهوى الذي يهيج من الآدمي، ويمكر به إذا اشتهت النفس.

---

(١) لفظ الحديث بتمامه: «حفت الجنة بالمكاره، وحفّت النار بالشهوات». أخرجه مسلم في الجنة، حديث ١، والترمذي حديث ٢٥٥٩، وأحمد في المسند ٢/ ٢٦٠، ٣٠٨، ٣/ ١٥٣، ٢٥٤، ٢٨٤، والدارمي ٢/ ٣٣٩، والبغوي في شرح السنة ١٤/ ٣٠٦، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ٦٢٦، والمتقي الهندي في كنز العمال ٦٨٠٥، وابن المبارك في الزهد ٣٢٥، وابن كثير في البداية والنهاية ١٢/ ١٣، والآجري في الشريعة ٣٩٠، والقرطبي في تفسيره ٤/ ٢٨، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار ٤/ ٥٧، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٨/ ١٨٤، وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٥/ ١٧٩٦، ٧/ ٢٦٦١، والعجلوني في كشف الخفاء ١/ ٤١٦، والسيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٧٤.

وإنما صار مكراً لأن هذه الشهوات بعضها مطلق، وبعضها محظور، فيمكر به في المطلق له، ليجره إلى المحظور عليه، لأن النفس بلهاء، فإذا مرّت في الحلال، فتمكنت منه، سلست في الحرام، إذا لم يكن في القلب ما يقيد النفس عن الحرام، ويقويها حتى لا تسلس، وقوة القلب من النور فإذا جاهد العبد، فمن جهاده أن يروِّض نفسه فيؤديها.

وأدب النفس أن يمنعها الحلال، [أدب النفس] حتى لا تطمع في الحرام، وذلك أن النفس قد اعتادت لذة التكلم بالكلام، فإذا لم يلزمها الصمت فيما لا بد منه، حتى تعتاد السكون عن الكلام فيما لا بد منه، فقد ماتت شهوة الكلام، فاستراح وقوي على الصدق، فلا يتكلم إلا بحق، فصار سكوته عبادة، وكلامه عبادة، لأنه إن نطق نطق بحق، وإن سكت سكت بحق، لأنه سكت مخالفة الوبال.

وكانت شهوة النظر، فاعتادت النفس لذة رمي البصر حيثما وقع، من غير مبالاة، فإذا لم يلزمها الخفض عما لا بد منه، وهو أن يكون خاشع الطرف، خافض النظر، اعتادت نفسه رمي البصر، لتدرك الأشياء.

فإذا أري الحرام لم يملك بصره، لأن شهوة النظر قد أخذت بعينه فملكته، فإذا ألزم عينه الغض عن النظر، ورمى بها إلى الأرض إذا مشى وقام وقعد، ماتت شهوة النظر إلى الأشياء، واعتادت غض البصر وحفظه، فإذا نظر نظر بحق، وإذا غضّ غضّ بحق، وصار نظره عبادة، وغضه عبادة.

وكذلك شهوة السمع واليدين والرجلين والبطن والفرج. فالمجاهدة هاهنا إذا عزم العبد على مجاهدة النفس، ألزم كل جارحة من هذه الجوارح السبع الفطام عن عملها حلالاً كان أو حراماً، حتى تموت تلك الشهوة.

لأن تلك الشهوة هي شهوة واحدة، أحلّ له بعضها، وحرّم عليه بعضها، بلوى من الله تعالى لعباده، وتدبيراً لهم، فما علم أنه يصلح لهم ويصلحون عليه أطلقه لهم، وما علم أنه يفسدهم وأنهم يفسدون عليه حظره عليهم فالمطلق حلال، والمحظور حرام.

وذلك مثل الكلام، فهي شهوة واحدة، بعضها حلال، وبعضها حرام، فالاستماع إلى الأصوات بعضه حلال، وبعضه حرام، والنظر إلى الأشياء بعضه حلال، وبعضه حرام، والأخذ والإعطاء بعضه حلال، وبعضه حرام.

وكذلك المشي، والبطن والفرج كذلك، وإنما هي شهوة واحدة لكل جارحة،

أحل للعبد إمضاء تلك الشهوة، وقضاء تلك النهمة، بصفة وهيئة، وحرم عليه بصفة أخرى وهيئة، كالمرأة يطؤها بالنكاح فتحل، ويطؤها بغير نكاح فتحرم عليه، وكذلك كل شيء خرج من هذه الجوارح من الحركات.

وقد أخذ عليه يوم الميثاق إلا بعمل جارحة إلا بما أطلق له في التنزيل، وعلى ألسنة الرسل، وقبل العبد ذلك يومئذ فأوثقه بما ضمن فاقتضاه الوفاء، ولذلك سمي بالعجمية «بنده» لأنه أوثق بما قبل من الطاعة في الأمر والنهي.

فإذا وفى له بتلك البدنكية، وفى له بالعهد، وهي الجنة، فقام العبد بمجاهدة النفس عندما يعرض ذكر شهوة محرَّمة عليه، فعلى العبد أن يجاهدها بقلبه، بما فيه من المعرفة، وتعلقه بالمواعظ التي وعظه الله عزّ وجل، من الوعد والوعيد، وذكر الموت والحساب والقبر والقيامة، حتى يزجر النفس والعدو.

فإذا كان العبد لم يرض نفسه قبل ذلك ولم يؤدِّبها، ولم يعوِّدها رفض ما ذكرنا بدءاً من رفض هذه الشهوة المطلقة له. حتى تذل وتسكن، ويلزمها خوف الله عزّ وجل وخشيته لم يملك نفسه عند ذكر ما يعرض لها، ولم يقدر على تسكينها، بل هي تغلب القلب بما فيها من سلطان الفرح، والزينة، والشهوة، فيصير القلب أسيراً للنفس، بعد أن كان أميراً على النفس.

لأن إمارة القلب بالمعرفة، وبما أعطي من هذه الأنوار التي وصفنا، ومن نور العقل، ونور الحفظ، ونور الفهم، ونور العلم، ونور السكينة فأجمل للعبد في الأمر.

فقيل له: جاهد في الله عزّ وجل حق جهاده، فمَن لم يرض نفسه قبل ذلك، فإذا جاهد فربما غَلَبَ وربما غُلبَ، فلذلك يوجد العبد مرة طائعاً، ومرة عاصياً في شهوة واحدة.

[الأكياس]

فأما الأكياس فراضوا[1] أنفسهم، فأدّبوها، فامتنعوا من الحلال المطلق لهم، حتى هدأت جوارحهم، وإنما هدأت وسكنت لسكون غليان شهوة النفس، فإذا استعملوها كان القلب أميراً قاهراً، فاستعمل تلك الشهوة بما يريه العقل، ويزين له، ويحد له، فيؤدب بأدب الله عزّ وجل الذي أدّبه.

فهناك يملك نفسه أن تقف على الحلال. فلا تجاوزه، فهو ينطق، فإذا بلغ في منطقه مكاناً يصير ذلك الكلام عليه غيبة أو كذباً، ملك نفسه، فامتنع وتورّع.

لأن شهوة الكلام قد ماتت منه. فهو يتكلم لله عزّ وجل، وابتغاء مرضاته. وكذلك النظر، إذا كان قد راوض نفسه حتى ماتت منه شهوة النظر، ملك نفسه عند الحرام، وملك السمع، وسائر الجوارح السبع.

روي أن سهل بن علي المروزي[2] ـ رحمه الله تعالى ـ كان إذا مشى في السوق حَشَى أذنيه بالقطن، ورمى ببصره إلى الأرض، وكان يقول لامرأة أخيه وهي في الدار معه: استتري مني.

وكان ذلك دأبه زماناً، ثم ترك ذلك ورمى بالقطن، ورفع بصره إلى الناس، وقال لامرأة أخيه: كوني كيف شئت، فذلك منه حيث وجد شهوته ميتة.

وروي عن عامر بن عبد قيس[3] ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال: ما أبالي امرأة لقيت أو حائطاً..

---

(1) راضوا: من الرياضة، ورياضة النفس عند الحكماء هي الإعراض عن الأعراض الشهوانية، وقيل: الرياضة ملازمة الصلاة والصوم ومحافظة آناء الليل واليوم على موجبات الإثم واللوم وسدّ باب النوم والبُعد عن صحبة القوم. (كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ١/ ٩٠٠).

(2) هو سهل بن علي الزاهد، من أهل مرو، صحبه النووي وأخذ التقشف منه، وكان أوحد زمانه في الورع. (كتاب الثقات لابن حبان ٨/ ٢٩٠).

(3) عامر بن عبد قيس، من بني عامر بن عصر، وكان في الوفد الذي وفد على رسول الله ﷺ، وهو أخو عمرو بن عبد قيس الذي بعثه الأشجّ ليعلم علم رسول الله ﷺ (الطبقات الكبرى لابن سعد ٦/ ٨٥).

وروي عن بعض التابعين أنه قال: ألزمت نفسي الصمت بحصاة جعلتها في فمي. وكان إذا أكل أخرجها، وإذا فرغ وضعها في فيه، وكذلك إذا صلّى، فبقي في ذلك أربعين سنة، حتى لزمت نفسه الصمت فرمى بها.

وروي لنا عن رسول الله ﷺ أنه مرّ برجل يعبث في صلاته بلحيته فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»[1] وإنما يخشع القلب بما يتجلّى له من عظمة الله - عزّ وجل جلاله - ويهيج من النفس الخوف، والخشية والحياء منه، فيوجل القلب، فإذا خافت النفس، وخشيت فوجل القلب، واستحيا، سكنت الجوارح، وملك القلب جوارحه، ووقف بها على الحدود.

فإذا ترك الرياضة أحاطت بالقلب فورات الشهوات، وحلاوتها، وزينتها كالدخان، والغيم، فلم يستعين إشراق الأنوار، وأكمنت الأنوار بما فيها من السرور، والبهجة، والزينة، والحلاوة، واللذة.

فلم يتجلَّ في الصدر نور العظمة، والسلطان، وافتقد صاحبه الخوف، والخشية، والحياء. أن يعملوا على القلب، والنفس فأصابت النفس. فهمتها بما زين لها العدو، ومناها الغرور والأماني الكاذبة، يعدها سعة المغفرة ووقارة الرحمة، وفيض العفو، والتجاوز، ويحدّث نفسه بالتوبة ليتجرأ على الذنب.

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٢٨٩، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٣/ ٢٣، والمتقي الهندي في كنز العمال ٥٨٩١، والألباني في إرواء الغليل ٢/ ٩٢، وابن المبارك في الزهد ٢١٣، والقرطبي في تفسيره ١٢/ ١٠٣، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار ١/ ١٥٠.

[الرياضة][1]

والأكياس بحثوا عن أصل هذه الأمور، ووجدوه ـ على ما ذكرنا ـ، فخلصوا إلى الرياضة، فقالوا: إنا لما وجدنا النفس تأشر[2]، وتبطر، وتستمر على الفرح، حتى تصير بحال من امتلائها بالفرح بالأشياء، كالسكران الذي لا يفيق من سكره.

فكل شيء نالت من الدنيا من حال أو عرض، أو حال مطلق لها أو غير مطلق فرحت، فذلك الفرح سم يجري في العروق حتى يستحل على الجسد، ويمتلىء القلب من حلاوة ذلك الفرح، ويصير أشراً بطراً، لا يذكر موتاً، ولا قيامة، ولا حساباً، ولا شيئاً من أهوال القيامة.

فذلك فرح يميت القلب، وتستمر النفس عليه، وتطيب، وتستوي الشهوة وتحتد، فهذا فرح مذموم، ذمّه الله عزّ وجل في تنزيه، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

ودلّ على الفرح المحمود، وندب إليه فقال عزّ وجل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

فإذا فرح العبد بما فضّله الله عزّ وجل على سائر العبيد، فمنّ عليه بالمعرفة والعقل، فاستنار قلبه، وطابت نفسه، فتعاونا على الشكر والحمد، فاستوجب المزيد، فقال عزّ وجل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، ففرحه بذلك يجب عليه المزيد، فهذا الفرح ترياق، وذلك الفرح سم.

فمَن شرب الترياق لم يضره السم.

وإنما صار سمًا لأنه زينة، وفرح من جنس النار، وباب النار، وهو خط

---

(١) تقدم التعريف بالرياضة عند الحكماء، قبل قليل.

(٢) أشِرَ: بطر واستكبر، فهو أشِرٌ (المعجم الوجيز «أشر»).

إبليس، فجاء به الهوى مع العدو إلى هذا الآدمي بهذه الأشياء الدنياوية ليبتليه، ليفرح بهذا أو يستعمله معرضاً لاهياً.

أو يقبل على ربه عزّ وجل، وداره التي مهدت له. فقد قال عزّ وجل في تنزيله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران: ١٤].

ثم ذكر النساء والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام والحرث. ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فإذا فرح العبد بهذين المزيّن، الذي قد خلص حب تلك الزينة، وشهوتها إلى قلبه، وسماه الفرح. فإنه حسن المآب. فقد وصف الله عزّ وجل حسن المآب فقال: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥]، ثم بيّن لمَن هي، فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [آل عمران: ١٥] فوصفها بما فيها، ثم بيّن المتقين مَن هم، فقال عزّ وجل: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٧].

وقال عزّ وجل: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقين: ٩].

فمَن شغله الفرح بهذه الزينة، وملك قلبه حب هذه الشهوات، فقد ألهاه عن ذكر الله عزّ وجل، وفاتته التقوى، والصبر، والصدق، والقنوت، وحجزه عن الإنفاق، ونوّمه عن الاستغفار بالأسحار.

فالرائضون راضوا أنفسهم وأدّبوها بمنعها الشهوات التي أطلقت لهم، فلم يتمكنوها من تلك الشهوات إلا ما لا بد منه، كهيئة المضطر، حتى ذبلت النفس وطفئت حرارة تلك الشهوات، ثم زادوها منعاً حتى ذبلت، واسترضت.

فكلما منعوها شهوة أتاهم الله على منعها نوراً في القلب، فقوي القلب وضعفت النفس، وحيي القلب بالله جلّ ثناؤه، وماتت النفس عن الشهوات حتى امتلأ القلب من الأنوار، وخلت النفس من الشهوات فأشرق الصدر بتلك الأنوار فجلب على النفس خوفاً، وخشية، وحياء، واستولى على النفس وقهرها.

فالولايات على النفوس من القلوب بالإمرة التي أعطيت القلوب، بما فيها من المعرفة، فعلى حسب تأديب القلب النفس ينال القلب ولاية وسلطاناً.

فإذا أشرقت الأنوار من القلب في الصدر، وخلا الصدر من دخان الشهوات،

أبرز القلب سلطانه، فانقادت النفس، وسلست، وألقت بيدها سلماً وانكمن[١] العدو، واختشى[٢].

فمَن لم يرْض نفسه على ما وصفنا، وأعطاها مناها من الحلال، وانكمش في أعمال البر مستظهراً به. عجل له ثواب أعمال البر في العاجل نوراً، ففي الصدر ذلك النور، وليس له من القوة ما يمنع النفس من قضاء النهمة، فيمضي في الشهوات الحلال بلا نية، فيتعطل، ويبقى بلا حسنة ولا أجر، ومعه فساد الباطن، من حب الدنيا، والرغبة، والرهبة من المخلوقين، وخوف فوت الرزق، والخوف، والحسد، والحقد، وطلب العلو، وطلب العز، والجاه، وحب الرياسة، وحب الثناء والمدحة، والكبر، والفخر، والصلف والغضب، والحمية وسوء الظن، والبخل، والمن والأذى، والعجب والاتكال على العمل، ودواه كبيرة.

فكم من فعل سيء يظهر على أركان هذا، ومع هذه الدواهي، ففساد القلب، وخراب الصدر من الفرح بالدنيا، وأحوال النفس كلما ازدادت النفس فرحاً بهذه الأشياء؛ قويت، واحتدت، واشتد سلطانها، حتى تصير شرهة أشرة، بطرة مستبدة.

فإذا هويت شيئاً من الشهوات لم يملك القلب من أمرها شيئاً، ولم يتورع عن الحرام. وإن تورع عن الحرام لم يتنزّه عن الفضول، وإن تنزّه عن الفضول يتناول ما يحتاج إليه غفلة، وفقد النية والحسبة.

فإن تناول بنية وحسبة تناول على فقد ذكر المنة، وإن تناول على ذكر المنة، تناول على فقد رؤية المنة، واللطف، والبر. فهو أبداً في نقصان، في أي درجة كان؛ لأنه محجوب عن الله عزّ وجل، وإنما حجبه عن الله عزّ وجل، فرح بغير الله عزّ وجل.

---

(١) انكمن: كمن في المكان كموناً: أي توارى واستخفى في مكمن لا يفطن له (القاموس المحيط «كمن»).

(٢) اختشى: من الخوف والخشية. وخشاه: خافه (القاموس المحيط «خشي»).

[الفرح المحمود]

فالفرح المحمود على ضربين:

- فرح بالله عزّ وجل.
- وفرح بفضل الله ورحمته.

فالفرح بفضل الله وبرحمته ذكر النفس معه، والفرح بالله قد غاب ذكر النفس معه، والفرح بالله قد غاب ذكر النفس في ذكر مولاه.

فقال عزّ وجل في تنزيله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨].

وقال تعالى فيما روي: «قل للصديقين بي فافرحوا، وبذكري فتنعّموا»[١] وإنما يفرح بذكره عزّ وجل حين يرى منته عليه، وإنما يفرح بالله عزّ وجل مَن وصل إلى الله عزّ وجل، ومَن كان مرعاه بين يديه في ملك في ملكه؛ والواصلون إلى قرب الله عزّ وجل مرعاهم تحت العرش في القربة.

فالأكياس صاروا إلى الله عزّ وجل في هذا الطريق، وتوقُّوا كل فرح فما فرحوا بشيء من الدنيا، أو بشيء من أعمال البر، وقالوا: إنما فساد قلوبنا من فرح النفس، لأن النفس إذا فرحت بشيء استولت على القلب، فلم ينفذ له شيء، فليس بنا التمييز بين الأعمال، لأنا لا نسير إلى الله تعالى بالأعمال، إنما نسير إليه بالقلوب نزاهة وطهارة.

فإنما يدنس القلب بأفراح النفس؛ وصار القلب محجوباً عن الله عزّ وجل، فكانوا يصونون قلوبهم عن الفرح بكل شيء دقّ أو جل، للضرر الذي يحدث عنه.

ومَن جهل هذا الباب توقّى الحرام، والشبهة، وانكمش في أعمال البر، فهو في الظاهر عار، وفي الباطن خراب؛ لأن النفس شاركت القلب في تدبير العمل، فإذا شاركت أخذت نصيبها، والهوى مقرون بالنفس، فلا يتخلص العمل لصاحبه أبداً؛ وإنما صار هذا هكذا.

---

(١) الحديث القدسي لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

لأن الله عزّ وجل أوله قلوب العباد إلى ألوهيته، فمَن صان قلبه عما تورد النفس عليه بقي قلبه مع الله عزّ وجل، في جميع الأحوال، فهو أبداً واله بالله عزّ وجل، والواله تعلق القلب به، ومَن لم يصن قلبه حتى أوردت النفس عليه أفراحها التي أورد عليها الهدى من باب النار، فقد صار وله قلبه إلى الهوى، فالصائن أوله قلبه الله بأفراحه وحبه، والتارك للصيانة أوله قلبه الهوى بأفراحه إلى باب النار ولجت تلك الزينة.

فالكيس لما أبصر هذا التدبير من الله تعالى أنه خلق الآدمي هكذا، وجعل فيه قلباً ونفساً، ثم جعل للقلوب محلاً في عظمته، حتى تسير القلوب إلى ذلك المحل فيكون مقامها هناك حتى إذا صار القلب إلى أن يستعمل جوارحه استعملها بذكره، معظّماً لشأنه، حافظاً لحدوده.

حتى إذا سار القلب إلى أن يستعمل جوارحه استعملها بذكره، معظّماً لشأنه، حافظاً لحدوده في جميع حركات جوارحه، مؤتمراً بأمره، متناهياً عن نهيه وإن دق، مراعياً لتدبيره، راضياً بحكمه.

وذلك كله بقوة ما يلاحظه من عظمته، وجلاله بين يديه، فيخشاه، ويتقيه، ويخافه، ويرجوه، ويستحي منه، ويهابه، ويعظمه.

وخلق بباب النار هذه الأفراح، والزينة من النار، وحفت النار بها[١].

ثم خلق الهوى وأصله من الشيطان، فمرّ بهذه الأفراح إلى نفس هذا الآدمي، حتى تستعمل هذه الأشياء الملائمة لها، اللينة في ذاتها، الناعمة لجسدها، بذلك الفرح.

فابتلى عباده بهذين الفرحين: فرح هناك بين يدي عظمته، ومحله القلوب، وفرح هاهنا يورده الهوى، فيزيله الهوى عن ذلك الوله الذي في ذلك المحل، فيرده من هنا إلى ما هناك.

فمَن التفت عن ذلك الوله إلى هذا الوله، حجب عن الله عزّ وجل، ونفي عن الوله، ورجع قلبه لما رجعت النفس إلى هذا الوله الذي أولهه الهوى فخاب وخسر.

---

(١) هو من الحديث الشريف: «حُفّت الجنة بالمكاره، وحُفّت النار بالشهوات»، وقد تقدم الحديث مع تخريجه.

وكذلك حذر الله عزّ وجل عباده فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [المنافقون: ٩].

ثم قال: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

فلم يعب المال، والولد، وإنما عاب الوله بالمال، والولد، لأن الفرح والوله بالمال والوله يلهيه عن ذكر الله عزّ وجل، إذا لم يكن فيه فرح بفضل الله ورحمته. ودعاه الهوى إلى أن يفرح بالمال، لزينة الدنيا وبهجتها ولذتها، وبالفرح بالولد، ليلعب به ويلهو، ويتزين به، ويستظهر به، ويعتضد.

فصار المال، والولد فتنة لحبه إياهما فلم يحب المال من أجل أنه عون له على طاعة الله عزّ وجل، ولم يحب الولد من أجل أنه غصن من شجرته، خرج ليعبد مولاه، فيكون له جاهاً عند الله عز وجل بما يعبده ولده، ولكنه أحبهما للتكاثر، والتفاخر، والتعاضد، تزيناً بهما عند أهل الدنيا، كما قال الله عز وجل في تنزيله: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الكهف: ٤٦].

ثم قال عزّ وجل: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ [الكهف: ٤٦].

فمَن أحبها للزينة، وفرح بها، كان فرحه للدنيا، وكان وله قلبه إلى الهوى لا إلى الله عزّ وجل.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «ما تحت أديم السماء إله يُعبد من دون الله عزّ وجل، أبغض إلى الله عزّ وجل من الهوى»[١].

وقال: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٢].

فلما اتبعوا الشهوات، ولم يرضوا نفوسهم انقطعت القلوب عن محل الألوهية إلى الهوى، ففرحت بما أورد الهوى عليها عن دنياه، فضاعت الحدود، وذهبت العبودية، وخانوا الأمانة، فماتت قلوبهم عن الحياة بالحي القيوم.

وروي عن مالك بن دينار[٢] رحمه الله قال: مكتوب في بعض الكتاب: (إن

(١) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء ٦/١١٨، والسيوطي في اللآلىء المصنوعة ٢/ ١٧٣.

(٢) هو مالك بن دينار، مولى بني ناجية بن سامة بن لؤي بن غالب القرشي، كنيته أبو يحيى، من أهل البصرة، يروي عن أنس بن مالك، وكان من الزهّاد التابعين والأخيار الصالحين، كان يكتب المصاحف بالأجرة ويتقوت بأجرته، وكان يجانب الإباحات جهده ولا يأكل شيئاً من =

سرَّك أن تحيا وتبلغ علم اليقين، فاحتل في كل حين أن تغلب شهوات الدنيا، فإنه مَن يغلب شهوات الدنيا يفرق الشيطان من ظله) فهذه شهوات الدنيا إذا كانت مع الهوى.

فأما إذا تناولها وكان وله قلبه بين يدي الله تعالى في ملك العظمة، كان على سبيل نبي الله تعالى سليمان عليه السلام، ملك الدنيا شرقها وغربها، وقلبه أخشع القلوب للّه عزّ وجل، فلم يضره، فقال تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: ٣٩].

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ [ص: ٤٠] فإنما ارتفع الحساب عنه، لأنه تناولها وكان وله قلبه إلى الله عزّ وجل.

فقد كشفنا عن هذا الأمر بأن قلنا: إن قلب العبد موقوف بين يدي الوله إلى محل العظمة، وبين الوله إلى الهوى، إلى محل باب النار.

ففي العظمة أفراح وزينة، وبباب النار أفراح وزينة، فتلك الأفراح بالقلب، وهذه الأفراح التي بباب النار في النفس، هو الهوى، وهو ريح من نفس النار، والذي يورد هذه الأفراح على القلب، هو نور المعرفة، ونور العقل، حتى يشخصا ببصر قلبك إلى نور العظمة، فيرجع عليك مع الأفراح؛ فالعباد موقوفون بين هاتين الحالتين.

= الطيبات، وكان من المتعبدة والمتقشفة الخشن، مات سنة ١٢٣هـ، ويقال: سنة ١٣٠هـ، ويقال: سنة ١٣١هـ، وقيل: سنة ١٢٧هـ، والصحيح أنه مات قبل الطاعون، وكان الطاعون سنة ١٣١هـ. وفي البداية والنهاية توفي سنة ١٢٨هـ. (انظر كتاب الثقات لابن حبان ٥/٣٨٣ ـ ٣٨٤، والبداية والنهاية ١٠/٢٧، والطبقات الكبرى لابن سعد ٧/ ١٨٠).

[أهل المجاهدة]

فالإنسان منذ سقط من بطن أمه غذّي بالشهوات، وكلما نشأ نشأ معه فرح، وذلك فرح وجود اللذة والنعمة، وفرح الحياة بما فيها من الزينة والبهجة؛ فلما شبّ وعقل قامت عليه الحجة.

فاقتفى الوفاء بالإسلام، وهو الأمر والنهي فأراده قلباً، فاستعصت عليه النفس، فاحتاج إلى مجاهدتها، حتى يقيم أمر الله عزّ وجل، ويفي بالإسلام الذي قبله، وسيسعد غداً بجنته وجواره لأنه دعاه دعوة إلى الله عزّ وجل حين قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [يونس: ٢٥].

ودعاه إلى دار السلام حين قال: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] فصار أهل المجاهدة فرقتين:

فرقة حفظت الجوارح، وأدّت الفرائض، وسارت إلى الله عزّ وجل قلباً، فلم تعرج على شيء حتى وصلت إلى الله عزّ وجل.

وفرقة حفظت الجوارح، وأدت الفرائض بجهد، وتعب، في كد ومحافظة، وحراسة، ومع ذلك تخليط وتهافت في الخطايا، وأدناس لا يستطيع أن يسلم منها، بمنزلة راع أعطي سبعة أغنام ليرعاها في سبعة أودية في تلك الأودية سموم قاتلة، وجرف هارية، وسباع ضارية، فهو قائم على أكمة مراقباً لتلك الأغنام.

فإن رعت سماً بادرها بالبازهر[1]، والسمن، واللبن، حتى يردها إلى العافية.

---

(١) البازهر: كذا بالأصل، والصحيح: البادزهر الحيواني، وهو حجر خفيف هش، وأصل تكونه في الحيوان المعروف بالأيل. وإن هذا الحيوان يأكل الحيات، قد اعتاد ذلك غذاء له، فيحدث عن ذلك وجود هذا الحجر منه.

ومن منافع البادزهر: دفع السموم القاتلة وغير القاتلة، من حيوان كانت أو من نبات، وأنه ينفع من عض الهوام ونهشها ولدغها، وليس في جميع الأحجار ما يقوم مقامه في دفع السموم. وقيل معنى لفظ بادزهر: النافي للسم. فإذا شرب منه المسموم من ثلاث شعيرات إلى ١٢ =

وإن تردت في جرف فتكسّرت، عمد إلى ما تكسّر منها، فجبرها حتى تجبر.

وإن عرضت لها السباع زاد عنها، وطردها، وجدها فريسة استلبها من مخالبها وأنيابها، فداواها حتى تبرأ؛ فوكل العبد بجوارحه السبع ليحفظها، حتى لا تتعدّى الحدود.

فإنه إذا تعدّى الحدود، وعصى الله عزّ وجل، وخان الأمانة، وظلم نفسه، سقطت منزلته، فبعد عن الله عزّ وجل، فإذا بعد عنه تباعد عن الرحمة، وصار مرفوضاً مخذولاً، فأسره العدو، وذهب به إلى النار.

لأنه إذا أسره العدو ذهبت قوة القلب، واستولت النفس، فمرت في كل شهوة جزافاً، فلم تبالِ حلالاً ولا حراماً. فهلكت.

فهذا شأن العبد في حفظ الجوارح، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنين: ٨].

ثم قال الله عزّ وجل: ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المعارج: ٣٢].

حدثنا صالح بن عبد الله، حدثنا جرير، عن ليث، عن ابن أبي نجيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، قال: (أول خلق الله من الإنسان فرجه، فقال: هذه أمانة خبأتها عندك، فلا ترسل منها شيئاً إلا بحقها).

فالفرج أمانة، والبصر أمانة، والسمع أمانة، واللسان أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة، والبطن أمانة.

فإنما بدأ بالفرج، لأن جميع الأفراج تجتمع عند استعماله، وهو أقوى اللذات، وبه دخل النار أهله.

وقيل: يا رسول الله، ما يدخل الناس النار؟ قال: «الأجوفان: البطن والفرج»[1].

= شعيرة مسحوقة أو مسحولة أو محكوكة على المبرد بزيت الزيتون أو بالماء، أخرج السم من جسده بالعرق، وخلصه من الموت، وإذا سحق وذرّ على موضع النهشة جذب السم إلى خارج وأبطل فعله (صبح الأعشى للقلقشندي ٢/ ١٢٤ ـ ١٢٥).

(١) وروي الحديث بلفظ: «الأجوفان الفم والفرج»، أخرجه ابن ماجه حديث ٤٢٤٦، وأحمد في المسند ٢/ ٢٩١، والحاكم في المستدرك ٤/ ٣٢٤، والبغوي في شرح السنة ١٣/ ٨٠، والساعاتي في منحة المعبود ٢٠١٥، وابن كثير في تفسيره ٦/ ٣٤٧، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٧/ ٤٥٠، والسيوطي في الدر المنثور ١/ ٢٢١، ٢/ ٧٥، والبخاري في الأدب المفرد ٢٨٩، ٢٩٤، والهيثمي في موارد الظمآن ١٩٢٣، ٢٥٤٦.

وإنما خبأه عند عبده، يعني آدم عليه السلام، لأنه بدء الفرج، وهو سر الله عزّ وجل مقرون بسر القدر، لا ينكشف إلا لأهل الجنة فيها، فأمر بسر العودة لذلك، لأنه خلق مستور، خبأه الله عزّ وجل عندنا، وأمرنا بحفظه، وسماه سوءة، فحرص العدو على أن يهتك ذلك الستر، حتى يبدو لنا.

وقبل ذلك كان مستوراً عن آدم وحواء عليهما السلام، وإنما بدأ بالمعصية، قال الله عزّ وجل: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ﴾ [الأعراف: ٢٧].

فإنما صيّر كل جارحة من هذه السبع أمانة عندنا، لأن كل جارحة ذات شهوة، ومجمع الشهوات في النفس، فإذا استعمل هذه الشهوات بإذن الله تعالى وبلغ بها الحد الذي حدّه له، فهو مطلق له.

وإذا تعدّى إلى المحظور صار ملوماً، قال الله عزّ وجل: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

ثم أثنى عليهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ [المؤمنين: ٥ ـ ٦].

فأزال الملامة عن استعماله في نكاح، أو ملك يمين؛ ثم قال عزّ وجل: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنين: ٧] فذمّ الحد، وكذلك في كل جارحة على هذه الصفة.

فالراعي يحفظ هذه الأغنام حتى يصلح ما فسد منها، على ما وصفنا، فكذلك الذي وقف بمجاهدته على نفسه، يحفظ جوارحه على الحدود، في النظر، والكلام، والاستمتاع، والأخذ، والعطاء، والبطن، والفرج، فإذا غلب أو زل، أو نسي، أو غفل، عاد إلى مركز الطاعة بين يدي الله عزّ وجل بالاستغفار والتوبة؛ فهذا عبد في جهد الاستقامة، وباطنه غير مستقيم، لأن شهوات نفسه قائمة بين يديه، فهو يمنعها بجهد، ومتى ما غفل عنها زلّ وسقط.

[السير][1]

لطريق هذا العبد إلى دار السلام، ليس له وراء هذا مسلك وأما الذي راض نفسه وأدّبها، ومنعها اللذات والشهوات، حتى طهر قلبه، واستوجب القربة بطهارة قلبه، وآثر الفرح بالله على الفرح بما أورده الهوى على نفسه من أفراح الدنيا، فتح الله عزّ وجل له طريقاً إليه، فسار سيراً لم يلتفت إلى دار السلام.

لأنه لما أخذ في الرياضة أخذه بصدق، فلم يقف في الطريق على شيء مفروح به، ولو كان أسنى عمل من الأعمال، لأنه إذا توقّى الفرح بلذات الدنيا وشهواتها، أمدّ القلب النور، وهان عليه رفض الشهوات، حتى إذا انكمش في أعمال البر، فرح القلب بتلك الأعمال، ليقطع عن النفس فرحها بذلك العمل، لأنها إذا فرحت بعمل من أعمال البر، اطمأنت إلى ذلك العمل.

فإذا اطمأنت إلى شيء دون الله عزّ وجل، فقد ترك سيره إليه ووقف على ذلك العمل، فاقتضى منه صدق ذلك العمل، وهو أن تجد حلاوة حب الثناء والمدحة لذلك العمل.

---

(١) السير عند أهل التصوف نوعان: سيرٌ إلى الله، وسيرٌ في الله. فالسير إلى الله له نهاية، وأهل التصوف يقولون: السير إلى الله هو أن يسير السالك حتى يعرف الله، وإذ ذاك يتم السير، ثم يبتدىء السير في الله، وعليه فالسير إلى الله له غاية ونهاية، وأما السير في الله فلا نهاية له.
وأهل الوحدة يقولون: السير إلى الله هو أن يسير السالك إلى أن يدرك درجة اليقين بأن الوجود واحدٌ ليس أكثر، وليس ثمة وجود إلا لله، وهذا لا يحصل إلا بعد الفناء وفناء الفناء. والسير في الله عند أهل التصوف هو أن السالك بعد معرفته لربه يسير مدة حتى يدرك بأن جميع صفات الله وأسمائه وعلمه وحكمته كثيرة جداً، بل هي بلا نهاية، وما دام حياً فهو دائم في هذا العمل.
وأما لدى أهل الوحدة فهو أن السالك بعد إتمام سيره إلى الله يستمر في سيره مدة حتى يدرك جميع الحكم في جواهر الأشياء كما هي ويراها.
ويقول بعضهم: السير في الله غير ممكن، ذلك لأن العمر قليلٌ، بينما علم الله وحكمته لا تحصى، وبعضهم يقول: بل هو ممكن، وذلك أن البشر متفاوتون من حيث استعدادهم، فبعضهم لما كان قوياً فيمكنه أن يدرك جميعها (كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ١/ ٩٩٦).

فهو وإن أخفاه وستره علمت نفسه أن الناس يحسون بذلك منه، ويشعرون به فيأنس بعلم الناس، وملاحظة أعينهم إليه، فلا يصفو له عمل، ولا يقدر أن يخلص بأكثر من هذا، فيقبل منه إذا ردّ الذي عرض له من ذلك قبول الصادقين لا قبول الصدّيقين.

فينبغي للمبتدىء في هذا الأمر أن يبدأ بالصوم، فيصوم شهرين متتابعين توبة من الله عزّ وجل.

وعد الله عزّ وجل في تنزيله أن شهرين توبة من الله عزّ وجل لعبده إذا تابعهما، ثم ينتقل من الصوم إلى الإفطار، فيطعم اليسير من الشيء يتجزأ به. فإن كان في اليوم مراراً كسرة كسرة، فهو أجود له من أن يملأ بطنه، فيصيرها أكله، وإنما ذلك محمود عند الأطباء.

فنقول: أكلة واحدة كي يستمر بها، وذلك لا يدخل في هذا الباب لأن صاحب هذا لا يأكل حتى يتخم، إنما نشير عليه بأن يأكل كسرة قوتاً، فيداوي نفسه على ذلك وبين الأيام دسماً قليلاً، لئلا تهيج عليه الرياح، وتضطرب العروق، ويقطع الإدام والفواكه عن نفسه.

وكذلك في الكسوة، يجتزىء بالدون وما لا بد منه.

وكذلك في سائر الأحوال التي للنفس فيها حظ من الفرح واللذة يقطعها عن نفسه، ومجالسة الإخوان، والنظر في الكتب. فهذا كله أفراح النفس وجماعها.

[صدق المريدين]

وفي الجملة: ينبغي أن يتفقّد كل حال، وكل أمر للنفس فيه فرح واستبشار، من نعمه، أو وجوده لذة، أو أنس بشيء، فيقطعه عنها. وأنه كلما هويت النفس شيئاً أعطاها فرحت به، فينبغي له أن يمنعها. ولو شربة من ماء بارد. تريد أن تشربها، فيمنعها في تلك الفورة التي تشوقت لوجود بردها ولذتها، حتى تسكن تلك الفورة، وينغص عليها.

ثم يسقيها بعد ذلك حتى يملأها غماً، ويوقرها هماً، لأن من شأنها إذا حبس عنها هذه الأفراح بهذه الأشياء، وبهذه الأحوال، فكأنه يصيرها في سجن، فيتقرب إلى الله عزّ وجل بغمها وهمها، فيعجل الله عزّ وجل له ثوابه نوراً على القلب، فيزداد القلب بذلك النور قوة على منع النفس شهواتها، وعلى أخذ سلطانها؛ ويستولي عليها. وهي تذل، وتذبل، والعدو يخسأ، ويتحيّر، ويبطل كيده ومكره.

حتى إذا انتهى إلى أعمال البر، فكل عمل يراها تفرح به أو تأنس به، يقطع عنها ذلك العمل، حتى إنه لو قرأ القرآن فرجع فيه وغنى، منعها ذلك، لأنها متى وجدت شيئاً مفروحاً به، أنست، واطمأنت إليه، ومدت القلب إلى ذلك الأنس، فمتى يصلب القلب إلى الأنس بالله عزّ وجل والطمأنينة إليه والوله إلى عظمته، وصفاء الحب له، فهذا صدق المريدين ربهم عزّ وجل، والسائرين بالصدق إليه، والطالبين له في منازل القربة.

فينبغي أن يتقي كل فرح للنفس فيه نصيب، حتى يصل إلى ربه تعالى، فإذا وصل إلى ربه عزّ وجل امتلأ قلبه به فرحاً وسروراً، ويقيناً، فكل شيء مدّ إليه يداً من دنيا أو آخرة لم يضره، لأنه منه يقبل.

فإذا قبل منه حمده عليه وشكره، وكانت جوارحه مستقيمة، حافظة للحدود، معتصمة بخوف الله عزّ وجل، ولسانه ذاكر، وبدنه شاكر صابر، لأنه امتلأ قلبه بالله تعالى فرحاً، فلم تجد أفراح الدنيا فيه مكاناً.

فإذا فرح بشيء في الدنيا، فإنما يفرح ببر الله تعالى له بذلك، وتقديره، وتدبيره، ولطفه. ولا يخون أمانته، ولا يكفر نعمه، ولا ينسَ ذكره، ولا يحدث عيباً.

فاستعمال جوارحه في ذلك الشيء بمنزلة رجل شرب ترياقاً، فامتلأت عروقه منه، فإن مدّ يده إلى حية، أو عقرب لم يضره سمها، لأنه لم يجد السم مسلكاً إلى عروقه. فإذا لم يجد الترياق وجد السم مسلكاً إلى عروقه، فجمد الدم الذي في العروق من ذلك السم فمات.

فكذلك أفراح الدنيا تجري في العروق مجرى الدم، فتشمل الجوارح كلها، فتأخذ القلب فتسبيه[1]، فإذا دخلت الأنوار القلب بما راض نفسه بهذه الرياضة التي ذكرنا؛ عجل له ثواب رياضته، فانشرح الصدر، وانفسح.

فصارت الآخرة له كالمعاينة، ولاحظ الملكوت بتلك العين: عين الفؤاد، في فسحة ذلك النور المشرق في الصدر، فرأى شأناً عجيباً من عظمة الله عزّ وجل وجلاله، ورأى من لطف الله عزّ وجل بالعبيد، وبره بهم، وإحسانه إليهم، ومننه عليهم.

فامتلأ القلب به فرحاً، وجرت الأفراح في العروق، حتى امتلأت.

فمتى تجد بعد ذلك أفراح الدنيا مسلكاً إلى عروقه، حتى يكون لذلك الفرح سلطان يأخذ القلب فيسبيه، فعندها يمد يده إلى ما أحلّ له من الطعام، والشراب، واللباس، والنكاح، والاحتواء إلى ما قدر له من دنياه، فيقبله من ربه عزّ وجل على تدبيره الذي دبّر له.

فإن أخذ أخذ بحق، وإن أمسك أمسك بحق، وإن أعطى أعطى بحق، وقلبه حر من رق النفس وفتنتها.

وذلك الشيء، وذلك العمل بمنزلة رجل له ملء بيت دنانير يملكها، وإن أعطاه رجل صرة فيها عشرة دنانير، لم يعمل في قلبه فرح تلك العطية عملاً يؤثر أثراً، ولا يستبين.

وإن كان عنده تلك الصرة، فسقطت منه حتى تويت[2]، لم يبدُ عليه ضرر

(١) تسبيه: أي تأسره.

(٢) توي المالُ توىً: ذهب ولا أمل في عودته، وتوي الإنسان: هلك، فهو توٍ. وأتوى ماله: أهلكه. وأتوى الله الشيء: أذهبه (المعجم الوجيز «توي»).

ذلك، ولا عمل على قلبه حزن ذلك، ولا هو فرح بما أصاب، ولا حزن على ما أتوى وذهب، لامتلاء قلبه بفرح تلك الدنانير، التي هي ملء بيت.

فكذلك مَن فرح قلبه بالله عزّ وجل، استغنى بالله عزّ وجل، فلا تملك قلبه بعد ذلك أفراح الدنيا، لأنه لا يستغني بالدنيا، إنما غناه بالله تعالى؛ وهذا تأويل قول رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس»[(١)].

فالنفس إذا استغنت، فغناها بغنى القلب المشرق نوره في صدره.

فإذا اطمأنت النفس بما أشرق فيها من النور بالله عزّ وجل، أشرق النور فيه إلى الله عزّ وجل، فقد رقّ عندها نوال الدنيا من أولها إلى آخرها، في جنب ما عاين القلب، وأورد من حياة على النفس.

فهذا شأن النفس إذا وصلت إلى ربها عزّ وجل بوصول القلب. فإنما قلنا إنه لا يدع لنفسه قراراً على شيء من أعمال البر.

فكلما فرحت النفس بشيء من الدنيا أو بالعمل من أعمال البر، قطع عنها ذلك الفرح حتى يغمها، حتى يطهر القلب من أفراح النفس.

فهناك يرحم، لأنه إذا وصل إلى هذه المرتبة، بقي بلا أنس، ولا فرح، قد قطع نفسه أفراح الدين والدنيا، فهو يحفظ جوارحه عن كل ما نهى الله عزّ وجل وعن كل شيء من الفضول.

فيقيم الفرائض والسنن، لا يزيد عليها، كفى بهذا شغلاً، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «أدِّ ما افترض الله عليك، تكن من أعبد الناس، واجتنب محارم الله عزّ وجل، تكن أورع الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً»[(٢)].

فهذا المؤمن المستكمل المستحق لاسم الإيمان عند إقامة هذه الخصال الثلاثة، فكفى بهذا شغلاً.

فهذا عبد صدق الله عزّ وجل في العبودية. وأما سائر الناس من غير أهل هذه

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ١٥، ومسلم في الزكاة حديث ١٢٠، والترمذي في الزهد باب ٤٠، وابن ماجه في الزهد باب ٩، وأحمد في المسند ٢/٢٤٣، ٢٦١، ٣١٥، ٣٩٠، ٤٣٨، ٤٤٣، ٥٣٩، ٥٤٠.

(٢) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء ١/٧٥، وابن أبي حاتم الرازي في علل الحديث ١٨٢٤، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١/٤٦٢، وابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/٣٢٢، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٣٢٦٦.

الصفة، فهم متخبطون بطَّالون، يعبدون الله عزّ وجل على «الشايدجود»[1]، قد طابت أنفسهم ولذات أهوائهم.

وروي أن داود عليه السلام قال: يا رب، أمرتني أن أطهر بدني بالصوم والصلاة، فبمَ أطهر قلبي؟

قال: بالهموم، والغموم: يا داود.

فإنما تدنس القلب بالأفراح، أفراح النفس، فلا يطهر بمثل عمر نوح عليه السلام صوماً وصلاة، وإنما يطهر الصوم والصلاة أدناس الأركان بالمعصية، وإنما يطهر القلب ما يزيل عنه أدناس الفرح، وهو الهموم والغموم.

فلما منعت النفس شهواتها ذبلت، وطفىء تلظي شهواتها، وفوران دخان هواها، فزالت أدناس الفرح من القلب، بذهاب الفرح، وطهر بالأنوار التي ولجت القلب بمنزلة سحائب تحجبك بظلمتها، وبما فيها من الغبرة عن الشمس.

فلما انقشعت السحائب، وتبددت، أشرقت الشمس، فعندها يصلح لقرب الله عزّ وجل.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المائدة: ٣٥].

فالوسيلة والوصيلة بمعنى واحد. إلا أن الوصيلة أن يوصل الشيء بالشيء. فلما صار الأمر إلى ذكر الله عزّ وجل، أخرجوه مخرج القربة، فقيل وسيلة، بدَّل بالسين صاداً، وبالصاد سيناً.

فيكون له من الألفاظ أشرفها وأعلاها وأنزهها، فأمرهم بابتغاء الوسيلة إليه بالتقوى.

فجماع التقوى ههنا هو ما وصفنا، إلى أن يتقي الفرح في كل شيء، تجد النفس في ذلك الشيء فرحاً: من كلام، أو صيام، أو قيام، أو قعود، أو ذهاب، أو مشي، أو لباس، أو طعام، أو شراب، أو صاحب، أو أهل، أو ولد، إلا فيما لا بد منه كالمضطر، فإذا فعله على تلك الهيئة، فعله مع الاهتمام والاغتنام، أو مع الحزن، لأنك تجد ذلك الفعل لله عزّ وجل خالصاً، لا تأخذ النفس من ذلك الفعل لله حصتها.

فأنت تفعل ذلك الذي لا بد منه، فتكسر عليها فرحها، ونشاطها. لذلك التخليط الذي ترى في أمرك من قبلها، حتى يدوم عليها الغم والهم.

---

(١) الشايدجور: كلمة فارسية تعني: عبادة غير صحيحة.

[جهاد الصدِّيقين]

فجهاد الصدِّيقين في هذا أن يلقوا الفرح بشيء سواه، حتى أوصلهم إلى نفسه، بعد أن امتلأت صدورهم غموماً، وهموماً، فلما أوصلهم قربهم، ومَكَّن لهم بين يديه، وملأهم فرحاً، فاشتاقوا إليه، فقرّبهم، فازدادوا شوقاً.

كلما زاد قربهم اشتد شوقهم، فازدادوا حتى عطشت قلوبهم، وامتلأت قلوبهم أحزاناً، حتى قطعوا الحياة، والعمر بالأحزان.

وروي في الخبر، كان رسول الله ﷺ: «دائم الأحزان والفكر»[1].

وروي عنه ﷺ أنه قال: «ما عُبد الله عزّ وجل بمثل طول الحزن»[2].

وحق لمثل هذا أن يحزن، فإنه وصل بقلبه إلى رب ماجد كريم، فرأى عظمته وجلاله، وعطفاً، وبراً، ونال منه حباً. فلم يشفِ الوصول إليه بتلك القربة. وذلك الفرح به، دون رؤيته في الجنة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن مَن أمن الناس بوائقه»[3]، والورع سيد العمل، مَن لم يكن له ورع يرده عن معصية الله عزّ وجل إذ خلا بها، لم يعبأ الله بسائر عمله شيئاً.

فذلك مخافة الله عزّ وجل في السر والعلانية، والاقتصاد في الفقر والغنى، والصدق عند الرضا والسخط.

إلا أن المؤمن حاكم على نفسه، يرضى للناس ما يرضى لنفسه؛ والمؤمن حسن

---

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٣) روي الحديث بلفظ: «لا يؤمن الذي لا يأمن جاره بوائقه». أخرجه بهذا اللفظ البخاري في الأدب باب ٢٩، ومسلم في الإيمان حديث ٧٣، والترمذي في القيامة باب ٦٠، وأحمد في المسند ١/ ٣٨٧، ٢/ ٢٨٨، ٣٣٦، ٣٧٣، ٣/ ١٥٤، ٤/ ٣١، ٦/ ٣٨٥.

الخلق، «وأحب الخلق إلى الله عزّ وجل أحسنهم خلقاً»[١]، وينال «بحسن خلقه درجة الصائم القائم»[٢] وهو راقد على فراشه.

لأنه رفع لقلبه علم، فهو يشهد مشاهد القيامة بقلبه، يعد نفسه ضعيفاً في بيته، وروحه عارية في بدنه، ليس بالمؤمن حقاً مَن لم يكن حملانه على نفسه، الناس منه في عناء، وهو من نفسه في عناء.

رحيم في طاعة الله عزّ وجل، بخيل على دينه، حي مطواع، وأول ما فات ابن آدم من دينه الحياء، خاشع القلب لله عزّ وجل، متواضع قد برىء من الكبر، قائم على قدميه، ينظر إلى الليل والنهار، يعلم أنهما في هدم عمره، لا يركن إلى الدنيا ركون الجاهل.

قال رسول الله ﷺ: «لا جرم أنه إذا خلف الدنيا خلف الهموم والأحزان، ولا حزن على المؤمن بعد الموت، بل فرحه وسروره مقيم بعد الموت»[٣].

حدثنا عبد الجبار بن العلاء بن يوسف بن عطية قال: سمعت ثابت البناني رحمه الله تعالى يذكر عن أنس رضي الله عنه، قال: بينما رسول الله ﷺ يمشي إذ استقبله رجل شاب من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: «كيف أصبحت يا حارثة؟» قال: أصبحت مؤمناً بالله عزّ وجل حقاً. قال: «انظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقته» قال: يا رسول الله، عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، فكأني بعرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وإلى أهل النار كيف يتعادون فيها.

قال: «أبصرت فالزم، عبدٌ نوّر الله الإيمان في قلبه».

فقال: يا رسول الله ادع الله لي بالشهادة؛ فدعا له رسول الله ﷺ، فنودي يوماً في الخيل، فكان أول فارس استشهد، وأول فارس ركب، فبلغ أمه، فجاءت إلى

---

(١) في الحديث: «إن من أحبكم إليّ أحسنكم أخلاقاً» أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب ٢٧، والمناقب باب ٢٣، والترمذي في البر باب ٧١، وأحمد في المسند ٤/١٩٣، ١٩٤.
وفي حديث آخر: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» أخرجه أبو داود في السنة باب ١٤، وأحمد في المسند ٢/٢٥٠، ٤٧٢ ٥٢٧، ٥/٨٩، ٩٩، ٦/٤٧، ٩٩.

(٢) روي الحديث بلفظ: «إن المرء ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم». أخرجه أبو داود في الأدب باب ٧، ومالك في حسنِ الخلق حديث ٦.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٢/٦٥.

رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، أخبرني عن ابني إن يك في الجنة لم أبكِ عليه، ولم أحزن، وإن يك غير ذلك بكيت عليه ما عشت في الدنيا.

فقال: «يا أم الحارث، إنها ليست جنة، ولكنها جنان؛ والحارث في الفردوس الأعلى» فرجعت وهي تضحك وتقول: بخ بخ لك يا حارثة[١].

قال أبو عبد الله رحمه الله تعالى: فإنما وصل العبد لله هذه المنزلة بتلك الأنوار. ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: «هذا عبد نوَّر الله عزّ وجل الإيمان في قلبه».

حدثنا أبو محمد بن الحسن المكي، عن عبد العزيز بن أبي داود يرفعه إلى رسول الله ﷺ، بمثل حديث يوسف، إلا أنه قال: «لكأني أنظر إلى ربي عزّ وجل فوق عرشه يقضي بين خلقه»[٢].

فقد أعلم أن الإيمان في القلب، ولا يستنير في الصدر، لإحاطة غيوم الشهوات، وزين الذنوب بالقلب في الصدر، حتى إذا تاب العبد صقل قلبه بالتوبة فإذا جاهدها، وراضها، حتى ينقطع دخان شهواتها، ونوران الهدي، جاءت الأنوار مدداً للإيمان الذي في القلب، فصار القلب ذا شعاع، وإشراق في الصدر.

فإذا أشرق في صدره، فذلك عبد نوَّر الله عزّ وجل الإيمان في قلبه، فلما نوَّره استنار في صدره، فصدرت الأمور إلى الجوارح من ذلك النور، ومع الخوف، والخشية، والحياء، فعملت الجوارح على الحدود، والمقدار الذي أمر، مع البهاء والزينة.

وروي عن رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا عاد نكت أخرى، فلا يزال ينكت حتى يسوء القلب كله، فإذا تاب ونزع صقل

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد في المسند ٢/ ٢٢٧، والقاضي عياض في الشفاء ٢/ ٦٤، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٩/ ٣٥٧، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٥٢٥٢، وابن كثير في تفسيره ٣/ ٥٥٣، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٦٣، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار ٣/ ١٧١، والشجري في الأمالي ١/ ٣٢، والطبراني في المعجم الكبير ٣/ ٣٠٢، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٦٩٨٨، ٣٦٩٩١.

(٢) الحديث لم أجده في كتب الحديث التي بين يدي.

قلبه، فإنما ينصقل بالأنوار حتى يتجلّى كالمرآة المجلية، فإذا صار كالمرآة تراءت له الدنيا على هيئتها، والآخرة على هيئتها والملكوت»[١].

فإذا لاحظ في الملكوت عظمة الله عزّ وجل جلاله، صارت الأنوار كلها نوراً واحداً، فامتلأ الصدر شعاعاً.

بمنزلة رجل نظر في المرآة، فأبصر صورة نفسه فيها، وأبصر ما بين يديه وما خلفه فيها. فإذا قابل بها عين الشمس، وقع الشعاع في البيت فأشرق البيت من تقابل النورين: نور عين الشمس ونور المرآة، فكذلك القلب إذا جلى فانجلى.

فلاحظ العظمة والجلال. تجلّت العظمة بين الحجاب لذلك القلب المجلي، لأنه طاهر من أدناس المعاصي، وأدناس الشهوات، وأدناس الهوى. والتقى النوران فامتلأ القلب شعاعاً، فهناك تموت النفس، ويخشع القلب.

حدثنا سفيان بن وكيع، وقتيبة بن سعيد، قالا: حدثنا عبد الوهاب الثقفي، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ.

«إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته»[٢] ولكنه إذا تجلّى الله عزّ وجل لشيء من خلقه خشع له.

وكذلك لما تجلّى لطور سيناء صارت البقعة التي وقع التجلي عليها كالهباء المبثوث، وما في جوارها ساخت في الأرض، فهي تذهب في تلك البحار التي من وراء الدنيا إلى يوم القيامة فلا تستقر، وما جوارها أبعد منها، صارت ثماني فلق

---

(١) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٢٩، والترمذي حديث ٣٣٣٤، وأحمد في المسند ٢/ ٢٩٧، والسيوطي في جمع الجوامع ٥٦٩٥، وابن حجر في فتح الباري ٨/ ٦٩٦، والطبري في تفسيره ٣٠/ ٦٢، والهيثمي في موارد الظمآن ١٧٧١، ٢٤٤٨، والقرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٥٩، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٠١٨٩، والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٤٦٩، ٤/ ٩٢، وابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ٥٦، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٧/ ٢٢٩.

(٢) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الكسوف باب ١، ٦، ١٣، ١٥، وبدء الخلق باب ٤، ومسلم في الكسوف حديث ٦، ١٠، ١٧، ٢١، ٢٢، ٢٩، وأبو داود في الاستسقاء باب ٣، ٤، والنسائي في الكسوف باب ١، ٤، ٥، ١٠، ١٤، ١٦، ٢٠، ٢٣، ٢٤، وابن ماجه في الإقامة باب ١٥٢، والدارمي في الصلاة باب ١٨٧، وأحمد في المسند ٢/ ١١٨، ١٨٨، ٣/ ٣١٨، ٤/ ١٢٢، ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٥٣، ٥/ ٣٧، ٤٢٨.

فطارت هرباً وفرقاً، حتى وقعت أربعة منها في حرم الله عزّ وجل، وأربعة في حرم الرسول ﷺ بالمدينة.

وخرّ موسى عليه الصلاة والسلام صعقاً فصارت الأرض كلها ذات بهجة وزينة، حتى ظهرت الكنوز على ظهر الأرض، وأبصرت العميان، وصحّ كل مريض، وبرىء كل زمن، وانفتحت الأرحام فحملت كل عقيم، وحلّ كل أجاج.

فاعلم في هذا الحديث: أن الشمس إنما ذهب ضوءها خشعة لله عزّ وجل، وخشوعها خروجها في سربالها الذي سربلت به من نور العرش، فتهافت الضوء، فكذلك النفس إذا أحست بالتجلي خشعت له عزّ وجل، أو خرجت من جميع شهواتها إلى الله عزّ وجل بما فيه من المعرفة والعقل فضرب، ثم قرب، ثم زيد نوراً، حتى كان له بين يديه، فهو يعبده كأنه يراه.

وهو قول جبريل عليه السلام «ما الإحسان»؟ قال: أن تعبد الله عزّ وجل كأنك تراه[1].

فحسن العبادة مع الترائي، فإذا كان محجوباً فإنه يعبد الله ولا يلتمس الحسن، والزينة في العبادة.

بمنزلة رجل دعاه الملك ليقطع ثوباً بين يديه ويخيطه، فلا يترك هذا الصانع من خفة اليد، وحسن الابتداء، ووجازة الفعل، وإحكام الخياطة وزينتها، إلا صنعه بين يديه، ويريد أن يتجلى بذلك عنده، فيكتسب به جاهاً عنده ومنزلة.

والآخر رجل دعاه الملك، وقال: اذهب بهذا الثوب فقطعه، وخطه، وأنفذه إلى فلان الراعي، فلما غاب عنه رفع عنه باله، فكيف قطعه، وخاطه جوزه، لأنه لم يشعر برؤية الملك، ولا ذكر العرض عليه، وإن ما به ارتفاع العمل، فيقول: قد عملت، وأخذ الأجرة، وإنما جرّأه على ذلك غفلته عن رؤية الملك، وعن العرض عليه..

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٣١، باب ٢، والإيمان باب ٣٧، ومسلم في الإيمان حديث ٥٧، وأبو داود في السنة باب ١٦، والترمذي في الإيمان باب ٤، وابن ماجه في المقدمة باب ٩، وأحمد في المسند ١/٢٧، ٥١، ٥٣، ٣١٩، ٢/١٠٧، ٤٢٦، ٤/١٢٩، ١٦٤.

(السير إلى الله)[1]

فعمال الله عزّ وجل ثلاثة أصناف:

عامل يعمل على الترائي، فلا يترك زينة، ولا مبادرة، ولا سرعة، ولا خفة يده، ولا طهارة، ولا تعظيماً، ولا وجازة، ولا مسابقة إلا جاء بها، يريد أن يتحلّى بذلك عند مولاه عزّ وجل.

وعامل ليس له هذا الترائي، وهو محجوب القلب بالشهوات، صادق في ابتغاء مرضاته، ذاكر للعرض عليه، فلا يتزين، ولا يبادر، ولا يعظم، ولا يسارع، ولا يوجز، ولا يسابق، ولكنه يعمل على الأحكام، وحفظ الحدود، وإتمام الأمر بالأركان.

وعامل لا يذكر رؤية ربه عزّ وجل أنه ناظر إليه في هذا العمل، ولا هو ذاكراً لعرض الأعمال يوم القيامة، فهو يعمل على الغفلة على التجويز، فإنما يعمل كل صنف منهم على نوره الذي في صدره.

فجملة ما وصفنا من أمر السير إلى الله تعالى أن يتقي فرح النفس، أن يتركها حتى تفرح بشيء من أحوالها، أو بتناولها من الدنيا وأعمال البر، كلما ظهر فرحها نغص عليها بالمنع لها، والانتقال عنه حتى يملأها غماً.

فيذوب الفرح الذي يتأدّى إلى القلب، ويظهر النور، ويظهر في ذلك النور الفرح بالله عزّ وجل.

لأن ذاك النور يؤدي به إلى صفات الله عزّ وجل، وإلى عظمته، وجلاله، وجماله، وكبريائه، وبهائه، وسؤدده، وكرمه وجوده، وبره، لطفه، ومننه، وإحسانه، ورحمته.

---

(١) تقدم قبل قليل التعريف بمصطلح «السير» عند الصوفية والحكماء، والفرق بين «السير إلى الله» وبين «السير في الله».

فمحال أن يعتقد القلب هذا الفرح حتى يدوم له ذلك، وتزول عنه أفراح النفس، ثم يصير في فرحه بالله عزّ وجل حزيناً، لأنه محبوس عنه برمق الحياة في دار الدنيا، مشتاق إلى ربه عزّ وجل، قد أنس به واشتاق إلى لقائه، واستوحش من الدنيا وأهلها.

وهمته ذكر الله، وعبودية شهوته، وموت راحته ويوم عيده، وتحقيق ما وصفناه من ضرر فرح النفس. أن الله عزّ وجل حرم المعازف، والخمر على لسان نبيه ﷺ[١]. وما نطق به الوحي في شأن الخمر، وذلك أن الله عزّ وجل لما خلق الفرح، وجعل له باباً.

فلما خلق الجنة، خرجت الأغراس من باب الرحمة، وخرج غرس العنب من باب الفرح، فذلك أول ما أكل آدم ﷺ حين دخلها العنب، فامتلأ فرحاً.

وروي أن رسول الله ﷺ سئل: وما أول ما يأكل أهل الجنة؟ قال: العنب[٢]، وأول ما أكل آدم العنب، فامتلأ فرحاً، ووضع من الفرح في تلك النار التي فيها الزينة بباب النار التي سميت شهوات.

فجعل ذلك الفرح حظ إبليس، حتى يأخذه فيضعه في الأشياء التي يغوي الآدميين بها، فلما أضلّ إبليس المشركين بذلك الفرح، دخل الأشجار وكل معبود من دون الله عزّ وجل، فصوّت منها بذلك الفرح.

فكل مَن يتبع صوته سبى ذلك الفرح قلبه، حتى يجيبه إلى الشرك، وإلى عبادته. فهو يرى أنه يعبد الشجرة والوثن، وإنما يعبد الطاغوت.

وإبليس طغى حتى بلغ غاية الطغيان فقيل: طاغوت. وذلك قول الله عزّ وجل: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون ٥٣] بأديانهم، وإنما يفرحون بالله عزّ وجل، ولكن غير المقبول منهم، وهم يحسبون أنهم مهتدون بذلك الفرح لأنهم تناولوه من إبليس، لا من هداية الله عزّ وجل ومعرفته.

وإنما وصل إلى غواية آدم ﷺ، بما استفرحوا بصوته من الفرح.

---

(١) في الحديث عن أبي مالك الأشعري سمع النبي ﷺ يقول: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف، ولينزلنّ أقوامٌ إلى جنب علم يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم لحاجة فيقولوا: ارجع إلينا غداً فيبيتهم الله، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة» أخرجه البخاري في الأشربة باب ٦، حديث ٥٥٩٠.

(٢) الحديث لم أجده في كتب الحديث التي بين يدي.

روي في الخبر: أنه لما دخل الجنة صوت من مزمار له حتى كادت حواء تطير من الفرح.

فقالت: ما هذا الصوت؟

قال: لسروري بكمالكما.

ثم قلب المزمار، فناح نياحة أخذ تقلبها، حتى امتلأت حواء خوفاً.

فقالت: ما هذا الصوت؟ فقال: حزناً عليكما أن تموتا، أو تخرجا منها.

فهناك دلها على شجرة الخلد، ولتخويف الزوال دلاهما بغرور، حتى ذاقا الشجرة، فلما هَمَّا صارا محجوبين بالهم، فلما ذاقا عريا من اللباس وانكشف العطاء عن الذنب، فوليا في الجنة هاربين. فبالفرح، خلص العدو إليه، حتى أكل من الشجرة فصرعه.

فحرّم الله عزّ وجل الخمر لما فيها من ذلك الفرح، لأن إبليس لما سرق العنب من سفينة نوح عليه الصلاة والسلام، وافتقد نوح عليه السلام بينه وبين نبي الله ﷺ على الثلث والثلثين، فكل ما وجده نيًّا أو مطبوخاً فيه بقية من حظه لم تأكله النار، خاض فيه يديه بفرحه الذي أعطى، حتى يتحول ذلك الفرح من يده إلى ذلك الشراب.

وإنما يزيد، ويغلي بحرارة يده الملعونة، لأنه خلق من النار، فإذا شربه الشارب، وقد تحول ذلك الفرح من يديه في ذلك الشراب، دبّ في هذا الشارب، وانكمن العقل، لتدنس يده رجاسته.

فشاربه يحتمل مرارته، وذهاب عقله، وتلف ماله، وألم جسده، والآفات التي تحل به، فإنما يحتمل ذلك كله من أجل ذلك الفرح الذي دبّ فيه حتى يصده عن ذكر الله عزّ وجل، وعن الصلاة.

ووجد سبيلاً إلى أن يحرس بينهم، ويغري بعضهم ببعض، فحرمه الله عزّ وجل لئلا يفرح بفرح هو حظ إبليس لعنه الله تعالى.

فكذلك أصوات المعازف والملاهي، تلك الأصوات ممزوجة بالفرح الذي بيده، فلا يلتذ المستمع إلا بما يمازجه من الفرح الذي بيد العدو، فإذا مازجه وسمع الآدمي هاج بالفرح منه، ودبّ في جميع جسده، وطرب حتى وثب ورقص كالقرد.

فحرّم الله عزّ وجل هذه المعازف، للفرح الممازج من حظ العدو فيها وأطلق

هذه الأشياء التي لا غنية بالآدمي عنها، مما هو له غذاء، أو معاش، ثم حذّره أن يلهيه ذلك الفرح حتى يأشر، ويبطر، ويتعدّى الحدود.

فالكيس حسم باب الفرح عن نفسه من كل حلال أو حرام، ومن جميع أعمال البر، مما يجد في النفس استرواحاً إليه، وبه فرحاً، حتى ملأهما غماً، حتى طهر قلبه، وتجلّت فيه أنوار العزيز، الماجد، الكريم، على ما ذكر بدياً.

وعريت الملائكة من الشهوات، والجوارح، والأجسام، والأجواف، والضرورات. فلا يحتاجون إلى طعام، ولا شراب، ولا كسوة، ولكن يستكنونه من الحر والبرد. فنجت من فتن الآدميين وضروراتهم، ومكايد العدو، وأظهر خلقهم من التدبير بقوله: ﴿كُن﴾[1] [البقرة: ١١٧].

وعاملهم من ملك الجبروت، ومقاومهم في ملك الجلال، وأظهر خلقنا من يده، وعاملنا من ملك الرأفة، والرحمة، ومقاومنا في ملك المحبة.

فالملائكة مجبورون على حال واحد، لا ينفكون ولا ينقلون عنها. والآدميون خدم بين يديه عزّ وجل، يتقلّبون من حال إلى حال، وكل أحوالهم خدمة.

وإنما صار هكذا لأن المعرفة من الملائكة على الأبصار، والمعرفة من الآدميين على القلوب، والقلب أمير على الجوارح.

فحركات الجوارح كلها من تقلُّب القلب بمشيئاته، ومشيئاته بمشيئات ربه عزّ وجل.

فأي جارحة حركها فإنما محركها قلبه، والقلب شاخص إلى الله عزّ وجل بولهه في تلك الحركة فتلك خدمة منه له؛ مأخوذة هذه اللفظة من خدمة الساق، لأن الآدمي إذا قام منتصباً، قام على خدمة ساقه، فهو بالقلب قائم بين يدي ربه عزّ وجل.

ومنه تتأدى الحركات إلى الجوارح، حتى تظهر على الجوارح. فقيامه ونهوضه إلى ربه عزّ وجل بتلك الحركة هو خدمته، وهو النية التي ينوي بها العبد في كل عمل.

---

(١) ورد لفظ ﴿كُن﴾ في القرآن الكريم ١١ مرة، وهي: [البقرة: ١١٧]، و[آل عمران: ٣]، و[آل عمران: ٥٩]، و[الأنعام: ٧٣]، و[الأعراف: ١٤٤]، و[الحجر: ٩٨]، و[النحل: ٤٠]، و[النحل: ٤٠]، و[مريم: ٣٥]، و[يّس: ٨٢]، و[الزمر: ٦٦]، و[غافر: ٦٨].

[إنما الأعمال بالنيات][1]

والنية النهوض، يقال في اللغة: ناء ينوء، أي نهض ينهض. فالقلب يرتحل إلى الله عزّ وجل، حتى يصل إلى سدرة المنتهى إن كان له طريق، فإن حبس في الطريق فللتهمة احتبس، ولسوء الأدب منع، وانسدّ الطريق، فعلى أي حال كان، فقد نهض من مكانه إن وجد الطريق أو لم يجد.

ويقول للجارحة التي تعمل ذلك العمل تحركي بذلك العمل في حركاتك وأنفذي العمل على أثري، فإني واقف بالباب، أبتغي من ربي عزّ وجل مرضاته، بما ينفذ إليه على أثري فهذه النية.

ثم الناس في نياتهم على درجات، على تفاوت عقولهم، ولذلك قال رسول الله ﷺ، فيما يروى عنه، قال: «يعملون الناس الخير ويعطون أجورهم على قدر عقولهم»[2].

وروي عن الله عزّ وجل قال: يا موسى «إنما أجزي الناس على قدر عقولهم» قال له قائل: صف لنا شيئاً منه، كيف تتفاوت على قدر العقول؟ قال: مثل رجل دخل المسجد فوجد الصف الأول قد قام، فوقف في الصف الثاني، فقد سقط من درجة الصف الأول.

---

(١) روي حديث «إنما الأعمال بالنيات» بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في بدء الوحي باب ١، والإيمان باب ٤١، والإكراه في الترجمة، والنكاح باب ٥، والطلاق باب ١١، ومناقب الأنصار باب ٤٥، والعتق باب ٦، والأيمان باب ٢٣، والحيل باب ١، ومسلم في الإمارة حديث ١٥٥، وأبو داود في الطلاق باب ١١، والترمذي في فضائل الجهاد باب ١٦، والنسائي في الطهارة باب ٥٩، والطلاق باب ٢٤، والأيمان باب ١٩، وابن ماجه باب ٢٦، وأحمد في المسند ١/ ٢٥.

(٢) الحديث لم أجده في كتب الحديث التي بين يدي.

ودرجته أنه جاء عن رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته يصلُّون على الصف الأول»[١].

وجاء: أنّ الرحمة تنزل على الإمام مائة رحمة، فيأخذ مَن بحياله خلفه مثل ما للإمام، ثم الذي عن يمينه إلى منتهى خمسة وسبعين، ثم الذي عن يساره خمسون. فمَن دخل المسجد فوقف في الصف الثاني عن غفلة لم ينل عن صلاة الرب عزّ وجل شيئاً ولا من هذه الرحمة التي وصفت عن ابن عباس رضي الله عنه.

فمَن دخل فنوى: أني لو وجدت مكاناً لدخلت الصف الأول فبهذه النية استوى هو بالصف الأول، وله مثل أجورهم لما نوى، كأنه فيهم.

ثم إذا تمنى أن يدخل في الصف الأول ونوى ذلك، وامتنع وتحرَّج مخافة أن يؤذي مسلماً، أو يضيق عليه، يضاعف أجره على مَن في الصف الأول، بما اتقى أذى المسلم.

كذلك روي عن رسول الله ﷺ في شأن النية، وفي شأن التقوى؛ عن أبي كبشة الأنصاري رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أحدثكم حديثاً فاحفظوه: إنما للدنيا أربعة نفر:

عبد رزقه الله عزّ وجل علماً، ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فأجرهما سواء.

وعبد رزقه الله عزّ وجل مالاً ولم يرزقه علماً، فهو يتخبّط في ماله بغير علم، فلا يتقي فيه رباً، ولا يصل فيه رحماً، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهو بأخبث المنازل.

---

(١) أخرجه الدارمي ١/ ٢٨٩، وأحمد في المسند ٤/ ٢٦٩، ٢٨٥، ٢٩٦، ٢٩٩، ٣٠٤، ٥/ ٢٦٢، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٠٣، ١٠/ ٢٢٩، والطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٢٠٥، والسيوطي في جمع الجوامع ٥٠٩٠، ٥٠٩٦، ٥١٠٤، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٠٥٥٣، ٢٠٥٨٧، ٢٠٦٤٠، وعبد الرزاق في المصنف ٢٤٤٩، ٤١٧٥، وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٢/ ٢٥٥، ٣/ ٢٨٩، ١٠/ ٢٥١، والهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٩٢، وابن أبي شيبة في المصنف ١/ ٣٧٨، والهيثمي في موارد الظمآن ٣٥٦، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٧، ٦/ ٢١٣، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ٢٧، والمنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٣١٦، ٣١٨.

وعبد لم يرزقه الله عزّ وجل مالاً ولا علماً فهو يقول: لو أن لي مالاً عملت بعمل فلان[١].

حدثنا الفضل بن محمد، حدثنا زريق بن الورد الرقي، حدثنا أسلم بن سالم، عن ابن عبد الغفار بن ميمون عن عبد الملك الجزري، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن ترك الصلاة في الصف الأول مخافة أن يؤذي مسلماً أو يزاحم أحداً، فصلّى في الصف الثاني أو الثالث أضعف الله عزّ وجل أجره على مَن صلّى في الصف الأول»[٢].

فهذا بعقله نال زيادة الثواب على الصف الأول.

والآخر بغفلته وجهله سقط عن هذا الثواب.

فهذا تفسير «إنما أجزي الناس على قدر عقولهم»[٣].

ولذلك قال رسول الله ﷺ، فيما يروى عنه: «ولا يعجبنكم إسلام رجل حتى تعلموا ما عقدة عقله»[٤].

فالصادقون المخلطون: قلوبهم محجوبة بالشهوات. فنيتهم النهوض بالقلب. إذا نهضوا لم يجدوا منفذاً. فيقضون حيث بلغوا من الجو.

وأما الذين فتح لهم في الغيب، فإن قلوبهم تنهض إلى العلا حتى تبلغ مقامه. فهناك يبتغي مرضاة ربه تعالى. وحركات الجوارح عند فراغه من العمل تلحقه على أثره. فذلك النهوض هو نية.

والسابقون الذين وصلوا إلى الله عزّ وجل في مقامه، يترضّى ربه عزّ وجل ثم يلحقه العمل على الأثر، فالنيات متفاوتة، فهؤلاء خدم.

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي في الزهد باب ١٧، وأحمد في المسند ٤/ ٢٣١. والحديث كما رواه المؤلف هنا ناقص جملة وهي: «عبد رزقه الله عزّ وجل مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله عزّ وجل فيه حقه. قال: فهذا بأفضل المنازل...».

(٢) أخرجه بنحوه المنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٣٢١، والهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٩٥، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٠٦٤٧، وابن القيسراني في تذكرة الموضوعات ٧٧٦، وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٧/ ٢٥٠٧.

(٣) أخرجه الفتني في تذكرة الموضوعات ٣٠، بلفظ: «إنما أجازي العباد على قدر عقولهم».

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل في الضعفاء ١/ ٣٢٢، ٢/ ٨١٨، وابن القيسراني في تذكرة الموضوعات ١٠١١.

[الملائكة]

وأما الملائكة عليهم السلام، فإنما يعملون في مصافهم، ومقاومهم على الأبصار؛ وإنما خصّ جبريل عليه السلام من بين الملائكة، لأنه خادم ربه عزّ وجل، لأنه بين يديه على ساقه يخدمه باختلاف الأحوال، وأهل السموات في مصافهم، فالملائكة في أعلى الخلق مكاناً وهم سخرة للآدميين.

فأما إسرافيل عليه السلام فقابض الوحي، ومؤديه إلى جبريل عليه السلام وصاحب الصور، يدعوهم إلى الحشر وقبض الجزاء.

وأما جبريل عليه السلام فصاحب الرسالة.

وأما ميكائيل عليه السلام فقابض أرزاق الآدميين، والموكل بالقطر، والنبات والرياح لمعاش الآدميين.

وأما ملك الموت عليه السلام فقابض أرواحهم.

وأما حملة العرش فموكلون بالاستغفار للآدميين.

وأما الكروبيون، وأهل عليين فموكلون بالاستغفار والتضرع، والبكاء على أهل الذنوب من الآدميين.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لما أسري بي سمعت دوياً، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا بكاء الكروبيين على أهل الذنوب من أمتك»[١].

وأما أهل السموات فموكلون في صلاتهم بالاستغفار، ووفارة التقصير؛ وآخرون موكلون بالرياح، وآخرون موكلون بالسحاب، وآخرون موكلون بالشمس، وموكلون بالقمر، وموكلون بالنبات، وموكلون بالجبال، وموكلون بالبحار، وموكلون بالليل، والنهار، وموكلون بالحر، وموكلون بالبرد، وموكلون برزق الخلق صباح كل يوم، وموكلون بالثلج، وموكلون بأعمالهم: حفظة كتبة، وموكلون بالحراسة، وهم

---

(١) الحديث لم أجده في كتب الحديث التي بين يدي.

المعقبات؛ وموكلون بالهداية على القلوب، وموكلون بالهداية في الأسفار بالاستقامة، وموكلون بإتمام الكلام.

فإذا قال: الحمد لله. قال الملك: رب العالمين؛ وإذا قال العبد: سبحان الله، قالت الملائكة: وبحمده، ويكتب ذلك لصاحبها.

وموكلون بصلاة الآدميين في صفوفهم، فكلما زاد الرجل زاد معه ملك رحمة، وموكلون بحجهم، وفي مشاهدهم وموقفهم.

وموكلون بالزحف للنصر عند لقاء العدو؛ وموكلون بجنائزهم للتشييع. فهم أمام الجنازة.

وموكلون بليلة القدر، ونزول الروح، والتسليم على الآدميين.

وموكلون بالأعياد، وحمل الجوائز.

وموكلون بالتثبيت للآدميين في أعمالهم.

وموكلون بنزع الأرواح منهم، ورفعها إلى الله عزّ وجل، في مقام العرض.

هذا كله في الدنيا.

ثم إذا قامت القيامة فموكل بنفخ الصور، وموكل بالبشرى للموحدين، وموكل بحمل كسوة للآدميين.

وموكلون بالرحمة ليقسموها عليهم، وموكلون بجنبات النار، ينادون ربهم عزّ وجل، يسألونه السلامة.

وموكلون بوزن الأعمال، وعرض الدواوين.

وموكلون بحمل الأعمال من الخزائن إلى الموقف.

وموكلون بتشييعهم إلى الجنان من الموقف.

وموكلون في الجنان بالخزانة: قهارمة[1] وزوارة، وحملة هدايا من رب العالمين.

وجبريل عليه السلام موكل في الدنيا بأداء الوحي، وتبليغ الرسالة، ويوم القيامة بوزن الأعمال، وفي الجنة بالنداء من بطنان العرش، للزيارة إلى رب العالمين.

(١) قهارمة: جمع قهرمان، والقهرمان: مدبر البيت ومتولي شؤونه، فارسي معرّب.

فوجدنا الملائكة، كلهم مسخَّرون لنا في الدنيا، ويوم القيامة، وفي الجنان إلى الأبد. فآدم عليه السلام خليفة الله عزّ وجل في أرضه، والملائكة جند الخليفة. يعملون له ولولده، فاذكرنا في ولده في ضرب ولده عمرته الملائكة وما أفسد ولده أصلحته الملائكة، وما دنس ولده غسلته الملائكة وطهرته.

وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه قال: قالت الملائكة: يا ربنا منا المقربون، وما الصافون المسبحون، ومنا الكرام الكاتبون، ومنا ومنا، جعلت الدنيا لبني آدم يأكلون ويشربون، فاجعل لنا الآخرة. قال: لن أفعل. فعاودوه بمثل مقالتهم، فقال: لن أفعل. ثم عاودوه في الثالثة، فقال: لن أفعل، لن أجعل صالح ذرية مَن خلقت بيدي، كمَن قلت له: كن فكان، هم عبادي المقربون، والملائكة عباد مجبورون ومكرمون بالعبادة والطهارة، والآدميون خدم وتجار معاملون.

[المعرفة]

فالمعرفة رؤوس أموالهم، والحركات تجاراتهم، ومرضاة الله عزّ وجل أرباحهم.

قال الله عزّ وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ [محمد: ١٩] تقلّبوا في مرضاته، وثووا في جناته، تحت عرشه في جواره، فأكرم الله تعالى هذا المؤمن بمعرفته، فأحرزه في ذمته، وحرم عرضه ودمه وماله، وعظم وحرمته، فأعلمهم بالله أعظمهم حرمة، وأقربهم وسيلة، وأكرمهم عليه.

فمثل العالم به كمثل رجل نظر إلى شخص رجل، حتى عرفه بالوجه، فهو ساكن القلب، حتى إذا عرفه بخصلة من خصال الشرف، فوجد قلبه قد تغيّر له إلى التعظيم والإجلال.

فإن كان قد جمعت هذه الخصال في رجل واحد، مما وصف الله عزّ وجل بها نفسه، من الجود والغنى، والرأفة والرحمة، والسماحة، والكرم، والمعرفة بالأمور، والقوة والتدبير، ومحاسن الأخلاق، عظم شأن الرجل عندك، حتى تهتم في ذكره وأوصافه.

فمَن كشف له الغطاء حتى عرف ربه عزّ وجل بأسمائه الحسنى، وبأمثاله العلا، كان أسبى لقلبه، وألهج لذكره.

وابن آدم مطبوع على سبعة وهي: الغفلة، والشك، والشرك، والرغبة، والرهبة، والشهوة، والغضب. فهذه سبعة أخلاق.

فإذا جاءه نور الهداية حتى عرف ربه عزّ وجل ووحَّده، ذهبت الغفلة، وذهب الشك، والشرك. فهو يعلم ربه يقيناً، وينفي عنه الشرك، وزال الشك عنه.

ثم جاءت الشهوة، فأظلم الصدر بدخانها، وفورانها، ذهبت بضوء علمه، واستنارته، وتحيَّر في أمر ربه عزّ وجل كالشاك، وظهر شرك الأسباب، فكلما ازداد العبد معرفة وعلماً بربه عزّ وجل استنار قلبه، وصدره، وانتقص من الغفلة.

ومن هذه الخصال السبعة كلها، حتى يمتلىء صدره من عظمة الله عزّ وجل وجلاله، فعندما كشف الغطاء، وصار يقيناً، وزايله شرك الأسباب، وماتت الشهوة، وذهب الغضب، وذهبت الرغبة، والرهبة، فلا يرغب إلا الله عزّ وجل، ولا يرهب إلا منه، ولا يغضب إلا في ذات الله عزّ وجل. ولله، ولا يشتغل بشهوة إلا بذكر الله عزّ وجل.

[رياضة النفس]

قال له قائل: صف لنا من رياضة النفس شيئاً. قال: إن النفس إذا اعتادت اللذة، والشهوة، والعمل بالهوى، أقبل على فطمها عن العادة في كل شيء، فكلما اشتدّ عليها فطم شيء فأقبل قبل ذلك الشيء حتى تعظمها عنه، حتى يصير قلبك حرًا، يألف مع الله عزّ وجل ببره ولطفه.

فقد رأيت البازي كيف يلقى في البيت، وتخاط عينه، حتى ينقطع عن الطيران، ويربى باللحم، ويرفق به، حتى يأنس بصاحبه ويألفه إلفاً، إذا دعاه فسمع صوته أجابه.

فكذلك النفس إنما تجيب ربها عزّ وجل فيما أمرها بعد فطامها من عادات الأمور التي اشتهت ولذّت، فإذا فطمها ألزمها الدعاء، وثناء الرب عزّ وجل، ومدائحه، ونجواه، حتى تأنس بذلك، وتألف الذكر، حتى ينكشف الغطاء بعد ذلك، فيألف ربه عزّ وجل.

وكذلك تجد الصبي قد ألف ثدي أمه. حتى لا يكاد يصبر عنه ساعة، فإذا فطمته اشتد على الصبي، وبكى، وقلق، فإذا دام الفطم نسيه وأقبل على الطعام، والشراب، فكلما وجد حلاوة الأطعمة والأشربة هجر الثدي، وعاف ذكر اللبن.

وكذلك تجد الدابة تؤخذ من الدواب السائمة، لتؤدب وتعود الركوب، ففي الابتداء تنفر عن اللجام، والسرج، فتشكل حتى تسرج وتلجم حتى تعتاد، وتعلم السير حتى تصير أذنها إلى العنان وقلبها إلى إشارات الراكب بذلك العنان.

فإذا بلغ بها القنطرة، وثبت وثبة لا تدعها تجور، فتعتاد ذلك، فليس في كل مكان يوجد قنطرة، فيعودها الوثب وسيرها في جلبة الصنّاعين، مثل الحدادين، والنجارين.

فإذا نفرت من تلك الأصوات أو تركت سيرها أدّبها حتى لا تنفر ولا تتحيّر، حتى تصير أديبة سيورة.

فكذلك الآدمي، يؤدب كما تؤدب هذه الطيور، والدواب بالفطم عن عاداتها، وكل شيء تجد النفس لذته في وقت تفرح بذلك الشيء، فإذا فرحت به فقد تدنس بذلك الفرح، فيصير غشاء عليه، حجاباً له من ذلك الفرح.

فكان أهل الصدق في هذه الطرق يلزمون هذا الباب الذي وصفت، فكل شيء تفرح نفوسهم به من وجود لذة ذلك الشيء كائناً ما كان، من طعام، أو شراب، أو لباس، أو أهل، أو ولد، أو أخ، أو مؤنس، أو أصحاب، أو أمكنة، أو عرض من عروض الدنيا، فكانوا يتقون الفرح لذلك، فيأخذون من ذلك الشيء الذي لا بد لهم منه على الضرورة، ثم يهربون من لذته خوفاً على النفس أن تفرح بذلك.

فإذا دام على ذلك صاحبه، فذلك تقوى الباطن.

وأما تقوى الظاهر: فهو حفظ الجوارح مع الخلق، والملائكة.

فإذا فعل ذلك فأدّى الفرائض لمواقيتها، وحدودها، واستعان على النفس برؤية المولى والمقابر، وأهل السجون، والمواضع التي فيها النيران العظيمة، من الأتون ومذاب جواهر الزجاج، فإن في ذلك قمعاً للنفس أورثه فعله بنفسه الغم، ومن الغم الهم، والأحزان.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «ما عبد الله عزّ وجل بمثل طول الأحزان»[1].

تمّ كتاب الرياضة بحمد الله ومنّه

وصلّى الله على محمد وآله وصحبه، وسلّم تسليماً كثيراً

---

(١) الحديث لم أجده في كتب الحديث التي بين يدي، وأخرج المتقي الهندي في كنز العمال ٦١٧٦، حديثاً بلفظ: «ما عبد الله بشيء أفضل من الزهد في الدنيا».

المراجع

- **كتب الأحاديث الصحاح، وكتب السنن الستة.**
  ومسند الإمام أحمد بن حنبل.
  والمعجم المفهرس لأحاديث الرسول ﷺ.
  وصحيح الجامع الصغير، والكبير.
- **القواميس اللغوية: القاموس المحيط، المعجم الوسيط.**
- **تفسير الإمام القرطبي الجامع.**
  وتفسير الإمام ابن كثير.
- **المؤلفات المنشورة للحكيم الترمذي مثل:**
  - أدب النفس.
  - إثبات العقل.
  - بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب.
  - ختم الأولياء.
  - شفاء العلل.
  - علم الأولياء.
  - غرس العارفين.
  - غور الأمور.
  - منازل العباد من العبادة.
  - نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول.
  - الأمثال من القرآن والسنّة.
  - الحج وأسراره.
  - تحصيل نظائر القرآن.
- **إغاثة اللهفان:** ابن القيم.
- **بصائر ذوي التمييز:** الفيروزآبادي.
- **معارج القبول:** الشيخ حافظ الحكمي.



فهرس الموضوعات